التطرف اليساري
لعنة زمن الثورات

مجموعة مقالات مُجمعة

مركز الدراسات الاشتراكية

مقدمة: ما هو التطرف اليساري؟

بقلم: محمد شفيق

يناقش الكاتب الماركسي محمد شفيق في هذا المقال واحدة من أهم المعضلات التي تواجه المنظمات الاشتراكية الثورية وهي ضرورة النضال المستمر ضد خطر "التطرف اليساري"؛ وهو الاستعاضة عن استخدام بوصلة الأهداف الاستراتيجية للحركة الاشتراكية (مثل الاضراب العام أو بناء جهاز دولة قائم على سلطة الطبقة العاملة من خلال ثورة اجتماعية) لا كبوصلة لتفهم موازين القوى في الصراع الطبقي في لحظة تاريخية معينة، وذلك في تقدير ما العمل تكتيكيا في تلك اللحظة بالذات من أجل دفع النضال للأمام، بل اعتبارها أهدافاً في حد ذاتها، وبغض النظر عن الظروف الموضوعية وموازين القوى الفعلية، هي الدعاية المطلوبة وسط الجماهير ولا شيء سواها في كل الأحيان والمنعطفات. كما يناقش الكاتب زيادة نزوع البعض من الثوريين لهذا التطرف اليساري في لحظات هزيمة ثورة تصاحبها بالضرورة حالة من الشعور بالإحباط واليأس، ويطرح رؤية ثورية عن متطلبات النضال في أوقات الجذر الثوري.

في الشهور الأخيرة امتلأت الصحف ومواقع الأخبار الإلكترونية باتهامات لحركة الاشتراكيين الثوريين بالتطرف اليساري أو الطفولة اليسارية، وكان على رأس هذه الحملة يساريون بارزون، من أمثال رفعت السعيد من حزب التجمع، أو قوميون ممن انضووا مؤخراً تحت جناح السلطة كالمناضل النقابي السابق والوزير الحالي عدو العمال كمال أبو عيطة.

وبينما لم تتكلف الحركة عناء الرد على هذه الاتهامات نظراً للمواقف شديدة اليمينية والانتهازية التي يتخذها من يطلقون هذه الاتهامات، إلا أنه في الحقيقة هناك تاريخياً دوماً خطر كبير على الحركات والمنظمات الثورية من تزايد ميول التطرف اليساري أو الطفولة اليسارية خاصة في أوقات التراجع أو الجذر الثوري. وهذا بالتأكيد مختلف عما يقصده اليمينيون والانتهازيون؛ فبالبنسبة لهم أي أفكار أو تكتيكات ثورية، مهما كانت متناسبة مع حال الصراع الطبقي، تعني تطرفاً وطفولة يسارية.

لعل أهم ما يميز الميول المتطرفة هو الالتزام الحرفي بكتابات روّاد الماركسية، والتعامل معها كدوجما بغض النظر عن مواتاة اللحظة والمرحلة التاريخية، وكذلك الإهمال الشديد للتكتيكات المختلفة (لاسيما تكتيكات البناء في مراحل الردة والثورة المضادة) وإحلال الأهداف الاستراتيجية النهائية وشعاراتها محل التكتيكات المختلفة المتناسبة مع طبيعه المرحلة.

ولكن يظل السؤال، من أين تنبع جذور هذه الميول المتطرفة والتي يقع في حبائلها كثيرٌ من الثوريين المخلصين؟ ولماذا تحديداً تظهر هذه الميول في أوقات الردة والتراجع الثوري؟

للإجابة على السؤالين، بإمكاننا النظر في التجارب التاريخية للثورات العظمى. يمكننا بشكل عام ملاحظة أن هناك دوماً ميول يسارية متطرفة في كل التنظيمات الثورية أثناء الثورات العظمى، وفي حالات الصعود وتقدم الثورة تظل هذه الميول محكومة بالضغط الجماهيري العارم وبالمزاج الثوري السائد والذي يُحجم من نموها بالقدر التي تنغرس فيه التنظيمات الثورية في أوساط النضالات الجماهيرية والعمالية المختلفة أثناء الثورة.

تبدأ المشكلة في التأزم، وتزداد الميول اليسارية المتطرفة، بعد انهيار الحركة الثورية بشكل مباشر وخاصه بعد هزيمتها المرحلية أو النهائية حيث:

"يترك القمع العنيف للثورة المضادة بصمة قوية في عقول كل المشاركين فيها، بالأخص أولئك الذين أُبعدوا عن منازلهم أو أُرسلوا إلى المنفى. ولذلك حتى أولئك الناس ذوي الشخصيات الثابتة يفقدون عقولهم لفترات قصيرة أو طويلة؛ فلا يستطيعون مواكبة سير الأحداث ولا يتقبلون حقيقة أن التاريخ قد غيّر مجراه، وبالتالي يتوجهون لأن يحيكوا المؤامرات التي تنال من القضية والتي لا تخدم إلا أنفسهم".

(الاقتباس من كارل ماركس في وصفه لحال الثوريين بعد هزيمة الثورة الألمانية في 1848).

في الحقيقة أن موجات الجذر الشديدة للثورة وصعود الثورة المضادة تترك بصمتها بالفعل حتى على أكثر الكوادر الثورية صلابةً وتماسكاً، ويمكننا تفهّم الدوافع النفسية للأقلية الثورية في إنكار الهزيمة، فبعدما تُسحق الثورة أو تتراجع بشكل كبير ماذا قد يكون أكثر إرضاءاً للنفس ودفعاً للاكتئاب من طرح الإعداد لانتفاضة أو ثورة جديدة مثلاً كمهمة فورية وملحة؟

عملياً تدفع الفترة الرهيبة التي تلي هزيمة الثورة أو تراجعها الكثير من الثوريين إلى العمل الدعائي المجرد، بالأخص مع تراجع فرص النشاط العملي على الأرض، وهكذا من الممكن أن تتطور لدى بعض الثوار نزعة متطرفة قولاً وفكراً بعد تقلص مسئولياتهم العملية والتنظيمية بسبب الظروف الموضوعية.

وهكذا يبدأ الثوريون في الدخول في حلقة سلبية مفرغة، فعندما يفقد الثوريون تأييد الطبقة العاملة وينعزلون عنها تحت تأثير الهزائم المتلاحقة للثورة، توفر العزلة بذلك تربة خصبة يترعرع فيها التطرف اليساري. وكلما ازداد الثوار انعزالاً، كلما قلت الفرص الحقيقية لتصحيح تكتيكاتهم بواسطة الطبقة العاملة أثناء النضالات الجزئية، وتزداد بالتالي الشعارات المتطرفة جاذبيةً وبريقاً. فحينما يغيب الجمهور عن تلقي ما يقوله الثوريون، ما الذي يمكن أن يمنع الثوريين من تبني أكثر الشعارات الثورية تطرفاً وبريقاً؟ وبالتوالي تزيد هذه الشعارات المتطرفة والبعيدة عن الأوضاع الحقيقية للصراع الطبقى وموازين القوى من ابتعاد الجماهير والعمال عن الثوريين لندور بذلك في نفس الحلقة السلبية المفرغة.

وللأهمية القصوى للحالة النفسية والمزاجية للجماهير فقد أولاها الثوري الروسي فلاديمير لينين قدراً لا بأس من اهتمامه خاصةً بعد هزيمة ثورة 1905 الروسية، فنجده يكتب:

"التشاؤم، انعدام المقاومة وضعف العزيمة، ومناشدة "الروح"، كل تلك العناصر تشكل معاً أيديولوجيا حتمية في عصر ينقلب فيه النظام القديم برمته رأساً على عقب. وحينما تكون الجماهير، التي نشأت في ظل هذا النظام القديم الذي غرس فيها مبادئه وعاداته وتقاليده ومعتقداته، لا ترى، ولا تستطيع أن ترى، ماهية النظام الجديد الذي "يتشكل"، وماهية القوى الاجتماعية التي "تشكله" وكيف، ماهية القوى الاجتماعية القادرة على إحراز النصر والتحرر من مظاهر المعاناة الحادة، تلك سمة عصر الاضطرابات الثورية".

و لذا للتغلب على الميول المتطرفة في هذا الوقت المضطرب، لابد لأي حركة أو حزب ثوري أن يتعلم كيف يخوض مرحلة التراجع مع الجماهير، وأن يكون في قلب قواعدها المتقدمة في الوعي، دون أن يذوب بينها، لكن أيضاً دون أن ينفصل عنها.

إن فترات التراجع هي الفترات التي تتمرس فيها الكوادر الماركسية الراسخة وتصبح فيها أكثر صلابة. هذا التمرس والرسوخ، وهذه الصلابة، لا يمكن اكتسابهم من الفراغ بمعزل عن النضال العملي والموقعي في أوقات الجزر الثوري، حتى برغم ضيق حدود النضال في هذه الفترات، والذي تكتسب فيه مجرد وقفة احتجاجية أو مظاهرة صغيرة أهمية فائقة وتقدم للثوريين خبرات ودروس بلا حدود. ولنا هنا درسٌ تعلمه الكثير من المناضلين من فترة العمل الصعبة والمريرة والمليئة بالمخاطر في عهد مبارك، فباستثناءات نادرة كانت الكوادر التى تربت في ظل هذه الظروف الصعبة قبل الثورة بشكل عام أكثر رسوخاً وتمرساً من تلك التي لم تعاني من نفس الظروف بعد الثورة. وها قد جاءت الفرصة الآن لإعداد جيل جديد من الكوادر الثورية الصلبة في ظل عصر السيسي وثورته المضادة، خاصةً مع ازدياد الأوقات المتاحة للتثقيف والتقوية النظرية في كل مناحي الاشتراكية الثورية.

إن علينا الآن في فترة الركود والردة والتفكك أن نعمل ببطء ولكن بانتظام وثبات، أن نتقدم خطوة بخطوة، وأن نكسب بوصة تلو الأخرى وكادر ثورى تلو الآخر وأن نحافظ على المبادئ الاشتراكية الثورية، ولكن علينا أيضاً أن نطور الشعارات والتكتيكات الاشتراكية الثورية لتتناسب مع طبيعة المعركة التي نخوضها ومزاج الطبقه العاملة، ولتكن معركتنا ضد ميول التطرف اليسارية هى معركة ضد التشاؤم والإحباط ومعركة ضد نفاذ الصبر ومعركة ضد ضيق الأفق والتصلب.

وفي النهاية لا أجد أفضل من اقتباس كلمات لينين الموجهة لرفاقه البلاشفة في ظل سطوة الحكم القيصري بعد هزيمة ثورة 1905 كتعبير عما يجب علينا فعله. إن على الثوريين:

"أن يقوموا بواجبهم مهما كان شاقاً وبطيئاً ورتيباً.. ومن أجل أن نفي بالالتزام تجاه البروليتاريا، كان علينا أن نعاون بكل صبر وأن نعيد تعليم أولئك الذين انجذبوا للاشتراكية الديمقراطية أيام الحرية، أولئك الذين انجذبوا لقوة ووضوح شعاراتنا وروحها الثورية، بل أيضاً هؤلاء الذين يفتقرون إلى القدرة على احتمال النضال اليومي في ظل حكم الثورة المضادة. بعض من تلك العناصر انخرطت بالفعل في الأنشطة البروليتارية واستوعبت الرؤية الماركسية، لكن الآخرين يتذكرون فقط قليلاً من الشعارات دون أي فهم حقيقي لمعناها، كل ما يستطيعون فعله هو ترديد بعض العبارات القديمة فيما لم يستطيعوا تكييف التكتيكيات الاشتراكية الديمقراطية الثورية وفقاً للأوضاع المتغيرة".

*** المقال منشور في 3 فبراير2014 على بوابة "الاشتراكي"**

لماذا نقرأ كُتيب لينين "الشيوعية اليسارية: مرض طفولي"؟

بقلم: بيتر روبينسون

ترجمة: أشرف عمر

في أغسطس 1914، فشلت الأممية الثانية للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في الاختبار الأكثر حسماً، وكان لذلك الفشل عواقب كارثية. انزلق تقريباً كل القادة الاشتراكيين في أوروبا إلى الشوفينية، حيث دعموا مصالح دولهم في حرب إمبريالية راحت فيها أرواح عشرات الملايين من العمال.

أحد الأحزاب القليلة التي وقفت ضد الحرب على الدوام كان الحزب البلشفي في روسيا. وقد أدت خبرة الحرب، مع خيبة الأمل في أولئك القادة الاشتراكيين، إلى تجذير كبير في صفوف العمال والجنود. أما بعد الثورة الروسية في أكتوبر 1917، فقد قاد البلاشفة حكومة المجالس العمالية (السوفييتات) وسحبوا روسيا من الحرب. وفي نوفمبر 1918، اندلعت الثورة في ألمانيا لتنهي الحرب تماماً.

أدرك لينين الحاجة إلى منظمة أممية جديدة حيث تتجمع أفضل عناصر الأحزاب الاشتراكية في أوروبا. ومن ثم انطلقت الأممية الشيوعية الثالثة (الكومنترن) في مطلع مارس 1919. وكان التحدي الأكبر أمام الأممية الجديدة أن الأحزاب المنتمية إليها، إلى جانب الحزب البلشفي، كانت صغيرة ولم تنضج بعد في عنفوان الثورة. كانت رياح الثورة تكتسح أوروبا، وأُعلنت الجمهوريات السوفييتية في بودابست في 21 مارس 1919، وفي ميونيخ 7 أبريل من نفس العام، كما هبت موجات من الإضرابات في النمسا وإيطاليا وبريطانيا.

حينها رأى لينين فرصة كبيرة لبناء أحزاب جماهيرية تحت راية الاشتراكية الثورية. وكان محقاً في ذلك. انضم للأممية الحزب الاشتراكي الإيطالي ذو الـ 300 ألف عضو، وكذلك أحزاب جماهيرية من بلغاريا ويوغوسلافيا والنرويج والسويد. وصار الحزب التشيكوسلوفاكي يضم 400 ألف عضو.

وفي ألمانيا، انشق الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي في 1917. وبعد ذلك بعامين، انشق مجدداً لينضم 300 ألف عضو للحزب الشيوعي. أما في فرنسا، فقد غادر 140 ألف عضو الحزب الاشتراكي لينضموا إلى الحزب الشيوعي المُشكل حديثاً.

لكن تلك الأحزاب الجديدة لم تكن متمرسة في السياسات الثورية. في يناير 1919، اندفع الحزب الشيوعي الألماني سريعاً في انتفاضة غير ناضجة وكارثية في برلين، وصمد نظام السوفييتات في المجر فقط لأربعة أشهر، وفي بافاريا لم تدم به الحياة أكثر من ثلاثة أسابيع.

تحول المد جزراً، وكان لابد من استخلاص الدروس. خلال الإعداد للمؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في 1920، في وقت لم يتحقق فيه انتصارٌ بعد في الحرب الأهلية ضد الثورة المضادة للحرس الأبيض في روسيا، استغرق لينين وقتاً لتفحص الأحزاب الأوروبية واستعداديتها للمرحلة المقبلة من الثورة. والنتيجة كانت كتيّب "الشيوعية اليسارية: مرض طفولي" الذي يُعد واحداً من أهم كتاباته ومدرسة في استراتيجية وتكتيك الحزب الثوري. استند لينين في كتيّبه إلى خبرة البلاشفة عبر أكثر من عقدين من الزمان، خلال فترات كانت الحركة فيها تتقدم ثم تتراجع، وذلك للمساهمة في إرشاد الثوريين نافذي الصبر في الأحزاب الشيوعية الجديدة.

اتخذ "المرض الطفولي" لتلك الأحزاب الشابة أشكالاً متنوعة. وفي حين كان لينين يدرك أهمية المبادئ والالتزام بها، شدد أيضاً على الحاجة إلى المرونة التكتيكية، و"المساومات" في بعض الأحيان للوصول إلى وضع أفضل يسمح بكسب أكبر عدد من العمال للثورة.

وكما كتب لينين، فإن "السياسة علمٌ وفن لا يهبطان من السماء... والبروليتاريا إذا أرادت أن تنتصر على البرجوازية، يجب عليها أن تنشئ لنفسها ومن عندها "ساسة طبقيين" بروليتاريين".

في مؤتمره التأسيسي، صوّت الحزب الشيوعي الألماني ضد توصية روزا لوكسمبورج وقرر مقاطعة الانتخابات البرلمانية وبناء السوفييتات بدلاً من ذلك. وفي المقابل، جادل لينين بأن طالما ظلت لدى العمال أوهامٌ في البرلمان فإن الحزب مُلزمٌ بالمشاركة في الانتخابات لتحرير الجماهير من هذه الأوهام. كما أشار إلى أن مشاركة البلاشفة في انتخابات الجمعية التأسيسية، حتى بعد ثورة أكتوبر، قد حققت "نتائج سياسية قيّمة للغاية، ومفيدة للبروليتاريا فائدة قصوى".

صوّت المندوبون إلى المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الألماني أيضاً على مغادرة النقابات، وقد رفع أحدهم الشعار المتطرف "فلنخرج من النقابات" داعياً لنقابات عمالية ثورية. تلك المواقف قد عزلت الحزب عن جماهير العمال الذين كانوا في خضم عملية من التجذير.

كتب لينين: "إن الامتناع عن العمل داخل النقابات يعني ترك جماهير العمال التي لم تتطور بما يكفي تحت تأثير الزعماء الرجعيين". وعبر صفحات الكتيّب، وجّه لينين نصائح خاصة، ونقداً لاذعاً في بعض المواضع، لكل الأقسام الجديدة في الأممية الشيوعية.

كل حركة عمالية تعكس تفاوت الوعي داخل الطبقة، حيث تكون أقلية مناضلة من العمال على استعداد للقطع مع القادة الإصلاحيين القدامى وموظفي النقابات، بينما في الأغلب تقبع الأغلبية تحت تأثيرهم.

"الشيوعية اليسارية: مرض طفولي" إنما هو دليل يلتمس الطرق التي لا تعزل بها الطليعة الثورية نفسها عن الجماهير، والتي من خلالها يزيد تأثير هذه الطليعة على أعداد أكبر حتى تحوز الأغلبية. هذا الكتيّب يظل سلاحاً قوياً بين أيدينا اليوم.

***المقال باللغة الإنجليزية منشور في أبريل 2014 بمجلة "الاشتراكي" الشهرية – يصدرها حزب العمال الاشتراكي البريطاني**

ما هي "العصبوية"؟

بقلم: دانكن هالاس

ترجمة: ضي رحمي

يستخدم الكاتب الماركسي البريطاني دانكن هالاس في هذا المقال بعض خبرات المنظمات الاشتراكية في الولايات المتحدة وأوروبا في القرنيين التاسع عشر والعشرين لنقاش عدة مسائل هامة حول خطر الوقوع في "العُصبوية" للماركسيين الثوريين اليوم. أولا، هل يعتبر النضال من أجل بناء تنظيم يضم العمال الثوريين منفصلا عن بقية الطبقة العاملة (التي يعتبرها الثوريين المحرك الاساسي لاي ثورة اشتراكية) هو أمر "عُصبوي" يضر بالعلاقة بين الثوريين والعمال. كيف تتفادى المنظمة الاشتراكية الثورية في خضم نضالها جنبا إلى جنب مع العمال سواء في مواقع العمل أو داخل النقابات الخطرين المزدوجين: الأول هو تفادي الخطاب الدعائي المجرد تجاه العمال والذي ينفي أن الثوار يجب أن يطوروا نظريته الثورية بالتعلم من الخبرة اليومية العميقة للعمال، والثاني هو تفادي تذيل الثوريين لأى خطوات انتهازية للقيادات الإصلاحية للطبقة العاملة في المعارك المشتركة تحت دعوى "عدم البعد عن الطبقة العاملة".

كثيرًا ما يُساء استخدام مصطلح العُصبوية إلى الحد الذي يجعلنا لابد أن نبدأ بتوضيح ما لا يُعد عُصبوية. ففي بعض الأحيان يُنظر لمحاولة بناء تنظيم مستقل في سياق التدخل في النضالات المختلفة باعتبار ذلك من قبيل العُصبوية. وهذا محض هُراء، لو أنك مؤمن بأن الخط السياسي المُتبع داخل منظمتك سليم، أو على الأقل الأكثر صحة مقارنة بالآخرين، ستمتلك الحافز والدافع لبناء هذا التنظيم والحرص على نموه، وإلا فأنت غير جاد سياسيًا.

بالطبع، في بعض الأحيان تتسم محاولات البناء تلك بالغطرسة والتعالي، لكن، في الواقع هذا لا يعد عُصبوية بقدر ما يُعد غباءًا. وعلى وجه الحصر فإن العُصبوية تعني بوضوح: اتخاذ مواقف خاطئة تجاه الصراع الطبقي.

كتب لينين: "من خلال توجيه الاشتراكية نحو الاندماج مع حركة الطبقة العاملة أسدى كلٌ من كارل ماركس وفريدريك إنجلز خدمات جليلة في هذا الصدد: فقد أرسيا قواعد النظرية الثورية التي أوضحت ضرورة هذا الاندماج وأوكلت للاشتراكيين مهمة تنظيم الصراع الطبقي للبروليتاريا".

الاندماج، في هذا السياق، لا يعني أبدًا إحلال منظمة ثورية بأخرى غير ثورية. لقد كان لينين ملتزمًا إلى أبعد حد ببناء منظمة ثورية، لذا قطع بلا هوادة كل صلة مع أولئك، بما في ذلك العديد معاونيه السابقين، ممن ترددوا بشأن قضيته المركزية تلك. وكانت كلمة السر هي "الصراع الطبقي للبروليتاريا". هذا ما يجب على الاشتراكيين "الاندماج" فيه.

تعود أول إشارة لمفهوم "العُصبويين" للبيان الشيوعي في 1848. فالعُصبويون، في رأي كل من ماركس وإنجلز، هم أولئك الذين يبنون "اليوتوبيا" أو المدينة الفاضلة، من خلال خطط وبرامج مجردة مستمدة من المبادئ العامة المُفترضة، التي يحاولون كسب الجماهير بإقناعهم بها – مثال على ذلك "الجزر الاشتراكية" التعاونية وما شابه – وهذا مخالف لجوهر الماركسية التي تركز وتعتمد على الحركة الحقيقة، والصراع الطبقي الفعلي. وضع ماركس ذلك في اعتباره حين كتب يقول: "ترى العُصبوية مسوغات وجودها وتفتخر ليس بما لديها من قواسم مشتركة مع حركة الصراع الطبقي، وإنما بـ "اللغو الخاص" الذي يميزها هذا الحركة".

وهنا حركة الصراع الطبقي مقصودة حرفيًا. فهي ليست مجرد قضية، وليست حتى في المقام الأول قضية تخص تنظيم الطبقة العاملة هذا أو ذاك، بل قضية تطوير الصراع الطبقي الحقيقي وتنمية الوعي الطبقي. فماركس كان ثوريًا، وكانت الثورة بالنسبة له ليست مجرد "لغو خاص"، لكنها مرحلة ضرورية من مراحل النضال من أجل الاشتراكية التي، بدورها، لا يمكن أن تُبنى

إلا عن طريق الصراع الطبقي، بغض النظر عن، كما يقول ماركس، "ما يعتبره البروليتاري هذا أو ذاك، بل البروليتاريا بأجمعها في هذه اللحظة هدفها الخاص".

ومع ذلك، لا يمكن تجنب العُصبوية بمجرد التمسك الشكلي بمصطلح مركزية الصراع الطبقي. ففي بدايات عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر سَخَر إنجلز من الماركسيين الألمان المهاجرين في الولايات المتحدة الأمريكية، الذين حولوا الماركسية إلى "شكل من أشكال الخلاص بجعلها عقيدة ومذهب و[حفظها] بمعزل عن أي حركة لا تقبلها". وضع إنجلز في اعتباره منظمة Knights of Labor أو "فرسان العمل"* الذين قاموا بمحاولات مُعتبرة، لكن متخبطة، لتنظيم الطبقة العاملة، والتي وصفها بأنها "كان ينبغي ألا نكتفي بأن تُزدرى وتُحقّر من الخارج، بل كان لابد من تثويرها داخلياً".

هذه المجادلة يمكن تطبيقها بشكل عام. ففي السنوات الأولى للأممية الشيوعية التي أسسها ماركس في منتصف القرن التاسع عشر، عارض عددٌ لا بأس به من الثوريين الحقيقين، بالأساس في ألمانيا لكن ليس هناك فقط، العمل بطريقة منهجية داخل النقابات القائمة. وكانت حجتهم التي ساقوها أنّ تلك النقابات بيروقراطية ومحافظة، إن لم تكن رجعية بشكل صريح. وكان هذا صحيحًا إلى حد بعيد. لكن كان صحيحًا أيضًا أن تلك النقابات قد نظمت ملايين العمال، على الرغم من بيروقراطية ورجعية قياداتها، لقد كانت تلك النقابات منظمات طبقية لعبت دورًا (وإن كان سيئًا) في الصراع الطبقي، ولا يمكن تجاوزها ببساطة. يقول لينين:

"إننا نخوض الصراع ضد القادة الانتهازيين والشوفينيين بغية كسب الطبقة العاملة إلى جانبنا. ومن السخف أن ننسى هذه الحقيقة الأساسية والبديهية البسيطة. وكان ما ارتكبه "الشيوعيون اليساريون" الألمان أمرًا عبثيًا عندما – وبسبب الطابع الرجعي المعاد للثورة للقيادة العليا لتلك النقابات – توصلوا لاستنتاج مفادة أنه علينا الانسحاب من النقابات العمالية، ورفض العمل معهم، وبناء أشكال جديدة ومبتكرة للتنظيمات العمالية! وهذا خطأ لا يُغتفر، وهو بمثابة أكبر خدمة يمكن أن يقدمها الشيوعيون للبرجوازية".

القاسم المشترك فيما يخص هذا الخطأ (في معظم الأحيان) بين"اليسار" الثوري النشط وبين كل أنماط العُصبوية الأخرى هو الفشل في خلق الصلة مع نضالات العمال الملموسة، بالرغم من صعوبة ذلك، ووضع خطط طوباوية كبدائل.

ولذلك، فإن الأشكال الدعائية للعُصبوية، التي يبدو اختلافها ملحوظًا من الوهلة الأولى، جميعها لها مرجعية واحدة. لدينا هنا في بريطانيا تجربة غنية (إن كانت هذه هي الكلمة المناسبة). يمكن أن نطلق عليهم "القلة النقيّة المُختارة". وها هي أبيات الشاعر ‘‘تومي جاكسون’’ تصفهم، في إشارة إلى Socialist Labour Party أو حزب العمل الاشتراكي البريطاني القديم*:

نحن القلة المُختارة

وملعون كل من دوننا

في الجحيم متسع لكم

أما الجنة، فلنا!

كان حزب العمل الاشتراكي البريطاني القديم، دون أي داع على الإطلاق الأسوأ من نوعه في هذا الصدد، حيث ركزوا تركيزًا مفرطًا على الدعاية، وكان من شروط العضوية تدريب عال المستوى على (الماركسية) الشكلية. وليس مستغربًا، أنهم اعتقدوا في ضرورة تكوين "نقابات حمراء" مستقلة، وكانت لديهم قاعدة تمنع الأعضاء من الترشح لأي مناصب نقابية، رغم أنهم سمحوا لهم بأن يكونوا أعضاءًا في تلك النقابات حيث كان هذا من "ضرورات العمل".

إن الهوس بضم أعضاء "مُميزين"، والخوف من "ميوعة" العمال "قليلو الخبرة"، أمرٌ قد اتسمت به أيضًا بعض المجموعات التروتسكية وتفريعاتها (وإن لم يكن كلها). لِمَ إذن يُعد هذا الموقف عُصبويًا؟! في الواقع إن إجابة هذا السؤال تعيدنا مرةً أخرى للصراع الطبقي بوصفه جوهر هذه القضية.

وكما قال تروتسكي نفسه: "إن اتهام الانتهازيين لنا بالعُصبوية هو، في معظم الأحيان، من قبيل المدح". وهذا صحيح للغاية، لكنه لا يغيّر حقيقة أن الانحرافات العُصبوية يمكن أن تمثل خطرًا حقيقيًا. لقد فسّر تروتسكي ظهور النزعة العُصبوية بين البعض من أتباعه وأرجعه لملابسات وظروف نشأتهم.

"لقد مرت كل أحزاب الطبقة العاملة، وكل فصيل، أثناء المراحل الأولى، بفترة من الدعاية المحضة.. فترة من الوجود كحلقة ماركسية ذات أفكار مجردة حول طريقة العمل والاشتباك مع الحركة العمالية. وكل من لا يستطيع أن يتغلب، في الوقت المناسب، على هذه الحلقية المقيّدة يتحول بمرور الوقت إلى عصبوي محافظ.

ينظر العُصبوي للحياة بوصفها مدرسة كبيرة، وهو أحد مدرسيها.. ورغم أنه قد يُقسم بالماركسية في كل جملة، لكن تبقى العُصبوية نقيضًا للمادية الجدلية، التي تتخذ الخبرة كنقطة انطلاق ودائمًا ما تعود إليها.. يحيا العصبوي في عالم من الصيغ الجاهزة.. وهذا التنافر مع الواقع يعزز من حاجة العصبوي المستمرة لتقديم صيغه بشكل أكثر دقة. وهذا يتم تحت اسم النقاش. والنقاش بالنسبة للماركسي أداة هامة بالطبع، لكن أهميتها تكمن في أنها أداة من الأدوات الوظيفية للصراع الطبقي. بينما النقاش بالنسبة للعصبوي هو هدف في حد ذاته. لكنه، كلما أكثر من النقاش، كلما غفل عن المهام الفعلية. إنه يشبه من يروي ظمأه بماءٍ مالح؛ كلما نهل منه، كلما ازداد عطشًا".

لحسن الحظ، هذه العصبوية أصبحت أقل شيوعًا مما كانت عليه قبل سنوات مضت. فكثيرٌ من العُصبويين السابقين من هذا الطراز استوعبهم حزب العمل البريطاني المعاصر* Labour Party.

لكن أليس كل ما قيل يشير إلى أمر محدد، هو أنه يجب على الثوريين الدخول في حزب العمل، والقيام بأدوار أكثر فاعلية، والانضمام لها؟! ألا يُعد عصبوية، كما تقول جريدة المناضل (Militant)*، البقاء بعيدًا عن الطبقة العاملة؟!

هذه القضية، بالتأكيد، لا يمكن حلها عن طريق الصيغ الجاهزة. إن جوهر العصبوية هو الامتناع، أيًا كانت الذريعة أو الحجة، عن التفاعل مع الصراع الطبقي الحقيقي. هل يحتل الصراع الطبقي مكانًا، رئيسيًا أو فرعيًا، داخل حزب العمل؟! من الواضح أنه ليس كذلك.

بما أن لدينا معلومات مؤكدة عن صراعات داخل حزب العمل، فلابد أن يكون لنا تأثير عليها من خلال دعمنا للجناح اليساري، بشكل نقدي حين يلزم الأمر، ولكن مع استمرار كامل دعمنا لهم في نضالهم ضد الجناح اليميني. لكن، هذا مختلفٌ تمامًا عن فكرة أن يقوم Socialist Workers Party أو "حزب العمال الاشتراكي"* بتذويب نفسه داخل حزب العمل (أو أن يفعل ذلك بينما يحافظ على تنظيمه بشكل سري). وهناك ثلاثة أسباب تجعل من ذلك أمرًا خاطئًا.

أولًا، النضال الأساسي في أماكن العمل، ثم يأتي في المرتبة الثانية النضال في النقابات. على المنظمة الثورية، كلما كان هذا ممكنًا، أن تعمل على مستوى عالٍ من التنظيم في التأثير بكفاءة على العمال، وذلك عن طريق مطبوعاتها ووجودها الصريح. هناك فارق نوعي بين النقابات؛ المنظمة على أساس الوظيفة أو على أساس الصناعة، وبين الحزب العمالي القائم على فكرة سياسية (الإصلاحية)، وهذا ما نرفضه. ويبقى هذا الأمر صحيحًا وحقيقًا بغض النظر عن مدى كون قادة النقابات إصلاحيين أو رجعيين. ولهذا، فإن مقال لينين المقتبس منه أعلاه، لم ينادي بضرورة انضمام مؤيديه للحزب الاشتراكي الديمقراطي، برغم أن معظم قادة النقابات كان ينتمون لهذا الحزب.

ثانيًا، حتى في حالة الانحسار والتراجع الشديدين للنضال في أماكن العمل، فإن الوقوف جانبًا والعزوف عن المشاركة في النقابات يعد عصبوية. فعندما تتراجع موجات النضال تحتفظ النقابات بصلة عضوية بالنضال الطبقي. حتى وإن كانت بعيدة.

ثالثًا، وتحديدًا من وجهة النظر التي تقول بضرورة التأثير على الأجنحة اليسارية داخل حزب العمل، سيكون من الأفضل كثيرًا أن يحتل الاشتراكيين الثوريين مكانًا بصفتهم تنظيم مفتوح يناضل من أجل أفكاره السياسية، لأننا لن ندخل في صراعات حول المناصب الحزبية، أو اختيار المرشحين، وما شابه ذلك من أمور.

هوامش:

* فرسان العمل: من أهم وأكبر التنظيمات العمالية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر في الولايات المتحدة الأمريكية.

* حزب العمل الاشتراكي البريطاني القديم: انشقاق يساري في 1903 من الاشتراكيين الديمقراطيين.

* حزب العمل البريطاني: أهم حزب يساري اصلاحي معاصر في بريطانيا وتأسس عام 1900.

* Militant: منظمة بريطانية تروتسكية عملت من خلال حزب العمل البريطاني في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين.

* حزب العمال الاشتراكي: حزب ماركسي ثوري بريطاني.

*** المقال منشور باللغة الإنجليزية عام 1987**

حول الجبهة المتحدة

بقلم: ليون تروتسكي

ترجمة: أشرف عمر

يستعرض الثوري الروسي ليون تروتسكي في هذا التقرير الذي قدمه حول مسألة الشيوعية الفرنسية (في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية الثالثة التي تأسست في 1919 لبناء أحزاب شيوعية حول العالم بعد اندلاع الثورة الروسية 1917) أهمية تبني الشيوعيين لتكتيك الجبهة المتحدة في النضال اليومي ضد الرأسمالية. ويشرح الكاتب في التقرير رؤيته عن عدم تعارض تصميم الشيوعيين على بناء حزب عمالي ثوري منفصل عن القوى الاصلاحية مع تكتيك الدخول في اتفاقات تنظيمية مؤقتة (حول قضايا نضالية تهم كل العمال) مع القيادات الإصلاحية التي ما زالت تلتف حولها قطاعات عريضة من العمال غير الثوريين وذلك لتحقيق وحدة العمال في النضال من أجل تحقيق أهداف راهنة للحركة العمالية ككل، ورفع وعي وثقة الطبقة العاملة بقدراتها، وكسب شرائح أكبر من العمال إلى الاشتراكية.

نقاط عامة حول الجبهة المتحدة

(1)

إن مهمة الحزب الشيوعي هي قيادة الثورة العمالية، ومن أجل دعوة الطبقة العاملة للاستيلاء المباشر على السلطة وتحقيق ذلك، يجب أن يستند الحزب الشيوعي على الأغلبية الساحقة من الطبقة العاملة. وطالما كان الحزب الشيوعي لا يحظى بتلك الأغلبية، فعليه أن يناضل لكسبها.

يمكن للحزب تحقيق ذلك فقط عبر الحفاظ على منظمة مستقلة ببرنامج واضح وانضباط داخلي صارم. ولهذا السبب فإن على الحزب أن ينفصل أيديولوجياً وتنظيمياً تماماً عن الإصلاحيين والوسطيين الذين لا يناضلون من أجل الثورة البروليتارية، والذين ليس لديهم القدرة ولا الرغبة في تحضير الجماهير للثورة، والذين أيضاً يؤدي عملهم بالكامل إلى تثبيطها.

أما إذا تحسر أي من أعضاء الحزب الشيوعي على الانفصال عن الوسطيين بدعاوى "وحدة القوى" و"وحدة الجبهة""، فهم يظهرون بذلك أنهم لا يفهمون ألف باء الشيوعية، وأنهم أعضاء بالحزب الشيوعي فقط لأن الصدفة شاءت ذلك.

(2)

بعد التأكيد على الاستقلال التنظيمي والانسجام الأيديولوجي الكامل بين قواعده، على الحزب الشيوعي أن يكافح من أجل التأثير على أغلبية الطبقة العاملة. وهذا النضال يمكن أن يتقدم أو يتراجع وفقاً للظروف الموضوعية من ناحية، والتكتيكات التي يوظفها الحزب من ناحية أخرى.

لكن من المؤكد أن الحياة الطبقية للعمال لا تتوقف خلال فترة الإعداد للثورة؛ حيث تستمر الصدامات مع رجال الأعمال، مع البرجوازيين، ومع سلطة الدولة.

وفي هذه الصدامات الطبقية – التي تتضمن المصالح الحيوية لكل الطبقة العاملة، أو أغلبيتها، أو حتى هذا القطاع أو ذاك من الطبقة العاملة – تشعر الطبقة العاملة بالحاجة إلى الوحدة في الفعل، تشعر بالحاجة إلى الوحدة في مقاومة طغيان الرأسمالية، أو على الجانب الآخر: الوحدة في الهجوم على الرأسمالية. وأي حزب يعارض هذه الحاجة لدى الطبقة العاملة للوحدة في الفعل، لن يجني من العمال سوى الاستنكار والإدانة.

وبالتالي، فإن مسألة الجبهة المتحدة، ليست على الإطلاق، لا في أصلها ولا في ممارستها، مسألة علاقات متبادلة بين الكتلة البرلمانية الشيوعية ونظريتها الاشتراكية، أو بين اللجان المركزية لحزبين مختلفين، إلخ. إن مسألة الجبهة المتحدة – بالرغم من حتمية الانقسام في مدى زمني معين بين المنظمات السياسية المختلفة المستندة إلى الطبقة العاملة – تنبع من الحاجة الملحة لتأمين إمكانية بناء وحدة الطبقة العاملة في النضال ضد الرأسمالية.

أما أولئك الذين لا يفهمون هذه المهمة، فكأنما يقولون أن الحزب ما هو إلا نادي دعائي وليس منظمة للفعل الجماهيري.

(3)

في الحالات التي يظل فيها الحزب الشيوعي، عددياً، أقلية غير مؤثرة، فإن مسألة الاتصال بالنضال الجماهيري والانغراس فيه لا تفترض بالضرورة تأثيراً عملياً وتنظيمياً حاسماً. ففي هذه الظروف، تبقى التحركات الجماهيرية تحت قيادة المنظمات القديمة التي، بسبب قوة تراثها وامتداده، تستمر في الاضطلاع بالدور الأكبر والأكثر تأثيراً في النضال.

وعلى نحو آخر، فإن مسألة الجبهة المتحدة ليست مطروحة في البلدان التي يُعد فيها الحزب الشيوعي هو المنظمة الوحيدة التي تقود نضال الجماهير – كما هو الوضع في بلغاريا مثلا *.

لكن طالما أن الحزب الشيوعي يشكل قوة سياسية منظمة، لكن ليس القوة الحاسمة في الصراع، طالما أن الحزب الشيوعي يضم تنظيمياً، لنقل رُبع أو ثُلث أو حتى نسبة أكبر من الطبيعة البروليتارية المنظمة، فهو يواجه قضية الجبهة المتحدة بكل ما لها من جوانب.

فإذا كان الحزب يضم ثُلث أو نصف الطليعة العمالية، فهذا يعني أن الإصلاحيين والوسطيين ينظمون النصف الآخر أو ثُلثي الطليعة العمالية. ولا يحتاج الأمر إلى توضيح، إذ أن أولئك العمال الذين لا يزالون يؤيدون الإصلاحيين والوسطيين مهتمين هم أيضاً بالحفاظ على أعلى مستويات معيشة وأوسع مساحات ممكنة من الحرية في النضال. لذا علينا ابتكار تكتيكنا لمنع الحزب الشيوعي، والذي لا يضم ثلاثة أثلاث الطبقة العاملة، من التحول إلى عقبة تنظيمية في المسار النضالي الراهن للعمال.

بل وأكثر من ذلك، ينبغي على الحزب أن يبادر من أجل تأمين الوحدة بين هذه النضالات الراهنة. وفقط بهذه الطريقة يمكن للحزب أن يقترب أكثر من ثلثي الطبقة العاملة اللذين لم يتبعا قيادته بعد، اللذين لم يضعا بعد ثقتهما في الحزب لأنهما لا يفهمانه. فقط بهذه الطريقة يمكن للحزب أن يكسبهما.

(4)

إذا لم يكن الحزب قد انفصل بشكل نهائي وحاسم عن الاشتراكيين الديمقراطيين، لما كان سيصبح حزب الثورة العمالية، لم يكن ليقدر على اتخاذ الخطوات الجادة الأولى في طريق الثورة، لكان سيبقى أبداً صمام أمان برلماني ملتصق بالدولة البرجوازية.. ومن لا يفهم هذا، لا يعرف العنصر الأول في أبجديات الشيوعية.

وإذا لم يرغب الحزب الشيوعي في تحقيق مكاسب تنظيمية في كل لحظة يكون فيها العمل المنسق والمشترك بين الشيوعيين وغير الشيوعيين (بما يشمل الاشتراكيين الديمقراطيين) ممكناً، فسوف يكشف عن عدم قدرته على كسب أغلبية الطبقة العاملة، وهكذا سيتفكك متحولاً إلى نادي للدعاية الشيوعية وليس حزباً لحوذ السلطة.. فليس كافياً أن يمتلك المرء سيفاً، بل عليه أن يجعله حاداً، بل ليس كافياً أن يجعله حاداً، بل عليه أن يعرف كيف يستخدمه ببراعة.

أما بعد انفصال الشيوعيين عن الإصلاحيين، فلا يكفي دمج الشيوعيين معاً في منظمة منضبطة تنظيمية، بل أيضاً من الضروري أن تتعلم هذه المنظمة كيف ترشد كافة النضالات الجماعية في كافة نواحي النضال الحي. هذا هو العنصر الثاني في أبجديات الشيوعية.

(5)

هل تمتد الجبهة المتحدة إلى الجماهير العمالية فقط، أم أنها تشمل أيضاً القادة الانتهازيين؟

إن طرح مثل هذا السؤال ينتج عنه الكثير من سوء الفهم. فإذا كنا قادرين على توحيد الجماهير العمالية حول رايتنا أو حول شعاراتنا السياسية الراهنة، متجاوزين التنظيمات الإصلاحية سواء كانت أحزاباً أو نقابات، لكان ذلك هو الشيء الأفضل في العالم. وحينها لن تُطرح مسألة الجبهة المتحدة على شكلها الحالي.

هنا تكمن المسألة: إذ تنتمي القطاعات الهامة في الطبقة العاملة لهذه التنظيمات الإصلاحية أو تؤيدها. والخبرة الراهنة لدى العمال في هذه القطاعات ليست كافية لتؤهلهم للانفصال عن التنظيمات الإصلاحية والانضمام إلينا. وقد تحدث بعض التغيرات في علاقة الجماهير بالتنظيمات الإصلاحية، بعد الاشتباك مع المعارك الجماهيرية اليومية على وجه التحديد، لكن الأمور لا تسير حالياً على هذا النحو.

إن الكتل المنظمة في الطبقة العاملة منقسمة اليوم إلى ثلاثة أقسام. الشيوعيون من ناحية، يناضلون من أجل الثورة الاجتماعية، ولهذا السبب بالتحديد يؤيدون كل نضال يجري على الأرض للكادحين والمستغَلين ضد الدولة البرجوازية مهما كان جزئياً.

أما الإصلاحيون، وهم قسم آخر يضم كتلاً عمالية منظمة، فهم يكافحون من أجل التوافق مع البرجوازية. لكن كي لا يفقدوا تأثيرهم ونفوذهم بين العمال فهم مجبرين – بالرغم من الرغبات الملحة لدى قادتهم – على دعم وتأييد نضالات المستغَلين الجزئية ضد مستغليهم.

وأخيراً، هناك الوسطيين المترددين الذين يتراوحون دائماً بين الشيوعيين والإصلاحيين، والذين ليس لهم أي تأثير مستقل.

وهكذا فإن الظروف الراهنة تجعل الفعل المشترك ممكناً على عدد من القضايا الحيوية بين العمال المتحدين في التنظيمات الثلاثة السابق ذكرها وبين العمال غير المنظمين الملتفين حولهم.

وهنا على الشيوعيين، كما قلت من قبل، ألا يعارضوا هذا الفعل المشترك، بل على العكس ينبغي عليهم أن يبادروا من أجله، حيث أنه كلما اتسعت الشرائح الجماهيرية المنخرطة في الحركة، كلما زادت ثقتها بنفسها أكثر وأكثر، وزاد استعدادها وقدرتها على المضي قدماً بحزم، حتى برغم ما قد تبدو عليه الشعارات التي يتبنوها في البداية من اعتدال. وهذا يعني أن الأبعاد الجماهيرية للحركة تجعل هذه الحركة أكثر جذرية، وتخلق بذلك شروطاً أفضل وأرضاً خصبة لشعارات وأسلوب نضال وقيادة الحزب الشيوعي.

أما بالنسبة للإصلاحيين، فهم ينفزعون من الفرص الثورية للحركة الجماهيرية، فأماكنهم المفضلة والمأثورة هي في المنابر البرلمانية والمكاتب النقابية ومجالس التحكيم وأروقة الوزارات.

ونحن، على العكس وبرغم كل الاعتبارات الأخرى، مهتمين بسحب الإصلاحيين من أماكنهم ووضعهم بجانبنا أمام أعين الجماهير المناضلة، وباتباع التكتيك الصحيح سوف نكسب من ذلك. والشيوعي الذي يخاف أو يشك في ذلك إنما يشبه السباح الذي قد تعلم الطريقة الأفضل للسباحة لكنه لا يجرؤ على القفز في الماء.

(6)

تفترض وحدة الجبهة بالتالي أن يكون لدينا الاستعداد الكافي، في إطار وحدود معينة وعلى قضايا محددة، كي ننسق تحركتنا في الممارسة العملية مع تحركات التنظيمات الإصلاحية، طالما لا تزال تلك التنظيمات تعبر عن إرادة قطاعات هامة من البروليتاريا المناضلة.

لكن ألا نسعى حتى الآن للتوصل لاتفاق معهم؟ بلى، نحن نسعى للاتفاق والعمل المشترك معهم في كل الحالات التي تكون فيها الجماهير التي تتبعهم مستعدة للانخراط في نضال مشترك مع الجماهير التي تتبعنا، وحينما يكون الإصلاحيون بهذه الدرجة أو تلك مجبرين على أن يكونوا أداة في هذا النضال.

ألن يقولوا، بعد الانفصال عنهم أننا لازلنا بحاجة إليهم؟ بلى، سيردد بعض الثرثارين منهم مثل هذا الكلام، وقد ينتاب القلق بعضاً من بين قواعدنا هنا أو هناك جراء ذلك. لكن كما أشرنا، فإن هذه الجماهير العمالية العريضة – حتى أولئك الذين لم يتبعونا بعد ولم يفهموا أهدافنا لكنهم يرون منظمتين أو اثنين يقودون نضالاً موازياً – هذه الجماهير سوف تستنتج من سلوكنا أننا، بالرغم من الانقسام، نبذل كل ما بوسعنا من جهد لإفساح المجال أمام وحدة الجماهير في الحركة.

(7)

إن سياسة تهدف إلى تأمين الجبهة المتحدة لا تضمن بشكل تلقائي تحقيق الوحدة في الفعل في كل وقت. بل على العكس، في كثير من الحالات، بل في غالبيتها، تتحقق نصف الاتفاقات التنظيمية أو حتى لا تتحقق على الإطلاق. لكن من الضروري أن تتوفر لدى الجماهير الفرصة كي تقتنع بأن السبب الحقيقي وراء عدم تحقق الوحدة لم يكن غياب الرغبة في التوافق من جانبنا، بل غياب الإرادة الحقيقية للنضال على جانب الإصلاحيين.

وخلال عقد الاتفاقات مع التنظيمات الأخرى، نحن نلزم أنفسنا بشكل طبيعي بالتزام معين في الحركة، وهذا الالتزام ليس مطلقاً أو مجرداً؛ فعندما يبدأ الإصلاحيون في كبح جماح الحركة الجماهيرية، وعندما يبدأون في التصرف ضد توجه الجماهير ومزاجهم، فنحن – كتنظيم مستقل – نحافظ دائماً بحقنا في قيادة النضال حتى النهاية، حتى بدون أشباه الحلفاء المؤقتين.

قد يدفع ذلك النضال بيننا وبين الإصلاحيين إلى مرحلة أكثر حدة. لكن ذلك لن يتضمن تكراراً لنفس الأفكار التي دارت في دوائر مغلقة، بل سيدل – في حال صحة تكتيكنا – على امتداد تأثيرنا إلى كتل جديدة وأكثر حيوية من العمال.

(8)

من الممكن أن نرى في هذه السياسة تقارباً مع الإصلاحيين، وذلك فقط من وجهة نظر الصحفي الذي يظن أنه يطهّر نفسه من الإصلاحية فقط من خلال نقدها دون حتى أن يغادر مكتبه، والذي يخاف من التصادم مع الإصلاحيين أمام أعين الجماهير العمالية لإعطائهم الفرصة لتقييم كل من الشيوعيين والإصلاحيين معاً في مجرى النضال الجماهيري. وخلف ذلك الشعور الذي يبدو وكأنه خوفاً ثورياً من "التقارب" ينكشف نوع من السلبية السياسية التي تتوق إلى إدامة الوضع الراهن حيث يحافظ الشيوعيون والإصلاحيون على حد سواء للإبقاء على دوائر نفوذهما كما هي، وجماهيرهما في المؤتمرات والاجتماعات كما هم، وصحافتهما كما هي، وكل ذلك يخلق وهماً بالنضال السياسي الجاد.

(9)

لقد قطعنا صلتنا بالإصلاحيين والوسطيين من أجل ممارسة كامل حريتنا في نقد الغدر والخيانة والتردد والمراوحة في الحركة العمالية. ولهذا السبب، فإن كل الاتفاقات التنظيمية التي من شأنها أن تقيد حريتنا في النقد والتحريض هي مرفوضة تماماً. فنحن نشارك في الجبهة المتحدة لكن لا نذوب فيها ولو للحظة واحدة، ونعمل كفصيل مستقل داخل هذه الجبهة المتحدة. وخلال مجرى النضال على وجه التحديد، ينبغي أن تتعلم الجماهير من خبرتها أننا أفضل من الآخرين، أننا أكثر وضوحاً من الآخرين، وأننا الأكثر جسارة وحسماً منهم. بهذه الطريقة يمكننا أن نجعل الجبهة المتحدة الثورية تحت القيادة الشيوعية بلا منازع.

<u>هوامش:</u>

* بالرغم من النفوذ الجبار الذي حظى الحزب الشيوعي البلغاري في عشرينات القرن الماضي، إلى الدرجة التي وصفه به تروتسكي بـ "المنظمة الوحيدة التي تقود نضال الجماهير" والتي لم تكن بحاجة لبناء جبهة متحدة مع الإصلاحيين والوسطيين ضيقي النفوذ حينذاك، إلا أن الثورة في بلغاريا قد تلقت هزيمتين ثقيلتي الوطأة في العام 1923، حيث أهدر الحزب الشيوعي فرصة نادرة ومواتية للحركة الثورية إثر انتفاضة الفلاحين في يونيو ويوليو، وبعد ذلك عندما حاول إصلاح خطأه واندفع في عصيان سبتمبر دون أن يكون قد أعد بعد المقدمات السياسية والتنظيمية الضرورية لضمان انتصار العصيان.

*** المقال منشور باللغة الإنجليزية عام 1922**

كيف نفهم الجبهة المتحدة؟

بقلم: بول داماتو

ترجمة: محمد عصام معوض

يستعرض الكاتب الماركسي الأمريكي بول داماتو في هذا المقال كيف طوّر الثوري الروسي ليون تروتسكي في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين مفهوم الجبهة المتحدة ـ كتكتيك أساسي يناضل من خلاله الثوريون لتوحيد وتجذير نضال الطبقة العاملة من أجل كسر هيمنة القيادات الإصلاحية على الحركة العمالية. يتعقب داماتو محاولات تروتسكي إثناء الأحزاب الشيوعية التي نمت في أوروبا على بعد إنتصار الثورة الروسية عن 1917 عن اتباع سياسات وتكتيكات تعوقها عن كسب غالبية العمال غير الثوريين للأهداف الاشتراكية من خلال النضال المشترك بين الثوريين وغير الثوريين على مهام جزئية غاية في الأهمية لمستقبل الحركات العمالية والثورة، حيث طرحت نفسها في لحظات امتزجت فيها في الوقت ذاته فرص انتشار الثورة الاشتراكية عالمياً مع فرص صعود الفاشية وتدمير الثورة والحركات العمالية في بلاد عديدة. كما يستعرض الكاتب أهمية استخدام المنظمات الثورية لمنهج الجبهة المتحدة اليوم رغم صغر الحجم والتأثير على الحركة العمالية في الوقت الحالي.

خلال عقديّ العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، أخذ ليون تروتسكي يكتب عن الجبهة المتحدة.

في أعقاب الثورة الروسية عام 1917، بعد أن أطاحت جموع العمال الروس بالأوتوقراطية العتيقة، واستبدلوها بحكومة مجالس العمال والفلاحين والجنود، هزت الانتفاضات الطبقية أوروبا وأجزاء أخرى من العالم. وقد لخص رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج الوضع قائلاً: "أوروبا بأكملها تعج بروح الثورة".

وفي عام 1919 بعد ثورة أكتوبر الروسية وسقوط القيصر الألماني في نهاية عام 1918، تأكد الثوريون من أن الثورة الأوروبية وشيكة. وفي ذلك الوقت كتب المناضل الثوري ليون تروتسكي "العديد منا استهان – البعض أكثر، والبعض الآخر أقل – بالبداية العفوية للعمال وجموع الفلاحين للإطاحة بالبرجوازية في أجل قريب. وفي واقع الأمر إن هذه البداية كانت ضخمة بالفعل، فكان عدد الضحايا كبير جداً. ولكن كانت البرجوازية في هذا الوقت قادرة على الصمود أمام البداية الأولى، وهذا بالتحديد ما كان سبباً وراء استعادتها ثقتها الطبقية في نفسها". كانت الرأسمالية قادرة على تحقيق الاستقرار لنفسها، على الأقل بشكل مؤقت.

كشف اندلاع الحرب العالمية الأولى العفن الذي ضرب قلب الحركة الاشتراكية؛ فأغلبية قادتها استسلموا لأهداف الحرب من وجهة نظر حكوماتهم. ولكن نجاح الثورة الروسية سارع بتوطيد العلاقة بين المنظمات والأحزاب الثورية الجديدة التي التزمت بأممية الطبقة العاملة والثورة، والتي تكوّنت من اليساريين المنشقين عن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الانتهازية. وبالرغم من صغرها في البداية، إلا أنها سرعان ما نمت وتحولت لأحزاب جماهيرية، بالأخص في ألمانيا وفرنسا.

ومع ذلك لم تكن لأي من تلك المنظمات والأحزاب الثوري الحجم والانغراس في أوساط الطبقة العاملة والخبرة الضرورية لقيادة الحركات العمالية الجماهيرية إلى النصر كما فعل البلاشفة في روسيا. وفي حين استغرق حزب البلاشفة في روسيا سنوات عدة لينمو ويتطور في ظل الصراعات الطبقية المكثفة، تشكلت هذه الأحزاب الشيوعية الجديدة في غضون شهور في خضم الاضطراب الثوري.

تلك المنظمات – التي انضمت للأممية الشيوعية حديثة النشأة حينها – وجدت صعوبة في مراكمة العمل السياسي الجماهيري، فكانت من ناحية تريد كسب أغلبية الطبقة العاملة التي كانت لاتزال تدعم الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية القديمة، وفي نفس الوقت الحفاظ على ولاء الشباب الراديكاليين الذين فقدوا الثقة في السياسات البرلمانية وأرادوا الثورة الآن. وبالنسبة للشباب

الراديكاليين المعروفين بـ "اليساريين"، الذين قدموا تعبيراً نظرياً لنفاذ الصبر الثوري، فكان هدف الشيوعيين هو اتخاذ التدابير اللازمة لتحفيز أو استفزاز الجماهير ليقفوا خلفهم في الحركة، وهذا ما أصبح معروفاً بعد ذلك في ألمانيا بإسم "نظرية الهجوم".

رفض "اليساريون" التحالف والانخراط في النضال مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي الإصلاحي، منذ خيانته الأخيرة لمصالح العمال. وتلخص موقفهم هذا في توجيه النداء مباشرةً للجماهير من فوق رؤوس الإصلاحيين، واعتقدوا أن بمجرد اتخاذ قرارات حاسمة سيحظوا بمساندة جماهيرية. هذه الطريقة كان يُشار إليها أحياناً بـ "الجبهة المتحدة من الأسفل".

هذا النهج بلغ ذروته فيما سُميَ بـ "أحداث مارس" الكارثية في ألمانيا عام 1921، عندما رد الحزب الشيوعي على اعتداءات الشرطة على عمال المناجم في المنطقة المركزية في البلاد بالدعوة إلى إضراب عام. في تلك الظروف التي تطلبت اتخاذ خطوات دفاعية، دعا الشيوعيون الألمان إلى هجوم ثوري، وحتى استخدام القوة – وأيضاً افتعال هجمات بدت أن اليمين هو ما قام بها – لدفع العمال المترددين للانضمام لدعوتهم المتعجلة غير المُعدة جيداً.

انتهت تلك الحركة بالفشل والهزيمة وتسببت في فقدان الحزب الشيوعي الألماني نصف أعضائه (200 ألف عضو). وفي تقييمه لكارثة مارس، كتب تروتسكي:

"إن الأقلية الثورية والحيوية من البروليتاريا وجدت نفسها في مواجهة مع الأغلبية من البروليتاريا غير الثورية، قبل أن تحظى هذه الأغلبية بفهم وإدراك أهمية هذا الإضراب. وعندما وقف الحزب ضد سلبية الطبقة العاملة، سعى بعض الشيوعيين المتعجلين هنا وهناك ليحثوا الأغلبية من الطبقة العاملة للنزول إلى الشارع، ولم يعد هذا عن طريق التحريض ولكن عن طريق اتخاذ تدابير آلية".

عندما لا يكون للأغلبية الساحقة من الطبقة العاملة تصور واضح للحركة، أو تكون غير متعاطفة معها، أو لا تثق في نجاحها، وتأتي أقلية متسرعة تسعى إلى دفع العمال للإضراب باتخاذ تدابير آلية، فإن هذه الأقلية نافذة الصبر، المتمثلة في شخص الحزب، تصبح في صدام عدائي مع الطبقة العاملة وتتهشم عظامها.

وحدة النضال

وفي تلك الظروف صار تكتيك الجبهة المتحدة موضوعاً مهماً للنقاش داخل الحركة الثورية. من الغريب أن التكتيك قد تطوّر من قبل الشيوعيين الألمان قبل كارثة مارس 1921، وطرح التكتيك اتفاقات مشتركة مع النقابات العمالية والقادة الإصلاحين بغرض الدفاع عن حقوق الطبقة العاملة. كان يُنظر إليه كوسيلة لبناء الوحدة في النضال، وفي نفس الوقت يفرض على الإصلاحيين عرض أنفسهم أمام الطبقة العاملة، ويُظهر المهارات التنظيمية والسياسية والتكتيكية المتفوقة للعمال الشيوعيين في مناصرة الدفاع الموحد عن حقوق الطبقة.

وفي مقال كُتب عام 1921 عن الجبهة المتحدة، وضح تروتسكي ثلاث قوى أساسية في الحركة العمالية: الحزب الشيوعي الذي "يناضل من أجل الثورة الاجتماعية، وبسبب ذلك تحديداً يدعم كل حركة للكادحين مهما كانت جزئية ضد المُستغلِين وضد الدولة البرجوازية"، والإصلاحيون الذين يرغبون في تقديم تنازلات للنظام ولكن من أجل الحفاظ أحياناً على الجماهير التي تتبعهم "يُجبرون على دعم الحركات الجزئية للمستغَلين ضد المستغِلين"، وأخيراً الوسطيون الذين يتأرجحون بين هذا وذاك.

أما بالنسبة لحجة الشيوعيين الألمان بأن يدعوا إلى جبهات متحدة من "أسفل" – لرفض التعاون الرسمي مع قادة النقابات والإصلاحيين من خلال اللجوء مباشرة إلى العمال – كتب تروتسكي:

"لو كنّا ببساطة قادرين على توحيد الجماهير الغفيرة من العمال حول رايتنا أو شعارتنا الخاصة وتخطي المنظمات الإصلاحية، سواء كانت أحزاباً أو نقابات، فهذا بالتأكيد سيكون أفضل شيء في هذا العالم. لكن حينها لن تُطرح قضية الجبهة المتحدة على الشكل الحالي".

إن الطبقة العاملة في نضالاتها اليومية تلمس الحاجة القصوى للوحدة في العمل وتسعى إليها. وكان تروتسكي قد حذّر بأن "أي حزب يعارض هذه الحاجة لدى العمال للوحدة في الفعل، لن يجني من العمال سوى الاستنكار والإدانة".

وفين حين كان الإصلاحيون يرهبون تصاعد الحركة الجماهيرية خوفاً من خروجها عن سيطرتهم، ويبحثون باستمرار عن طرقٍ لكبحها واستيعابها بشكل آمن، فإن الثوريين يرحبون بهذا التصاعد ويحفزونه. فكما كتب تروتسكي فإن "كلما انخرطت الجماهير بشكل أكبر في الحركة، كلما زادت ثقتها بنفسها. وكلما زادت هذه الثقة، يزداد حزم الحركة الجماهيرية في القدرة على التقدم للأمام مهما كانت الشعارات الأولية للنضال متواضعة". إن النضال الجماهيري يجعل المشاركين فيه راديكاليين ويستدرجهم نحو السياسة الثورية.

ولتوحيد النضال، من الضروري طرح اتفاقات محددة للعمل مع القيادات الإصلاحية والنقابية. إن هذا العمل سيكون بمثابة مناشدة طبيعية لجماهير وقواعد الأحزاب والمنظمات الإصلاحية، وإذا قوبل بالرفض من قبل قادة هذه الأحزاب، فسيقع كامل العبء والمسؤولية على عاتقهم أمام جماهيرهم في الوقوف أمام طريق النضال الموحد. كتب تروتسكي "بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى، نحن مهتمين بسحب الإصلاحيين من أماكنهم ووضعهم بجانبنا أمام أعين الجماهير المناضلة".

درس من التاريخ

وبالرغم من عقد الاتفاقات بغرض العمل المشترك مع المنظمات الإصلاحية، إلا أن تروتسكي قد شدد على عدم الذوبان مع هذه المنظمات. عند الدخول في اتفاقات مع منظمات أخرى، فنحن بالتأكيد نلزم أنفسنا بضوابط محددة في العمل، ولكن هذه الضوابط لا يمكن أن تكون مُطلقة، ففي حال أن بدأ الإصلاحيون في وضع عراقيل واضحة تضر بالحركة على عكس مصلحة وميول العمال، فإن علينا كمنظمة مستقلة أن نحافظ دائماً على حقنا في قيادة النضال حتى النهاية، حتى بدون حلفائنا المؤقتين.

وبعد أكثر من عقد من الزمن، وتحديداً عام 1934، وقف تروتسكي ضد هذا النوع من الوحدة المطلقة، التي تدفن الاختلافات السياسية وتتحول إلى قيد في أيدي الثوريين:

"إن الاتفاقات النضالية العملية المؤقتة مع المنظمات الجماهيرية، حتى تلك التي يتزعمها أسوأ القادة الإصلاحيين، مُلزمة للحزب الثوري ولا مفر منها. لكن التحالف السياسي الدائم مع القادة الإصلاحيين بدون برنامج محدد، وواجبات مفروضة، وبدون مشاركة الجماهير نفسها في التحركات النضالية، هو أسوأ أنواع الانتهازية."

ندد "اليساريون" بالجبهة المتحدة بسبب تشكيلها مع الإصلاحيين. ولكن في الأساس جاء الرفض من أنه لا ينبغي على اليسار "تلطيخ" نفسه بالمشاركة في هكذا جبهة. لا يمكن كسب الجماهير من تحت تأثير الإصلاحية بكتابة مقالات نقدية هكذا ببساطة. فيجب أن تُتاح لهم الفرصة؛ كما قال تروتسكي "لتقييم الشيوعيين والإصلاحيين من نفس منظور النضال الجماهيري". إن السبب وراء الخوف من التوجه للعمل المشترك مع الإصلاحيين هو، كما كتب تروتسكي، "السلبية السياسية التي تتوق إلى إدامة الوضع الراهن كما هو، حيث يحافظ الشيوعيون والإصلاحيون على دوائر نفوذهما كما هي".

في أوائل 1930، حين أصبحت الفاشية الألمانية قوة جماهيرية، تهدد بالاستيلاء على الحكم وسحق الطبقة العاملة، كتب تروتسكي مرة أخرى سلسلة من المقالات (هذه المرة حين كان في المنفى مُطارداً من البيروقراطية الستالينية التي سيطرت على الحكم على أنقاض الدولة العمالية في روسيا) يحث فيها الحزب الشيوعي الألماني على تشكيل جبهة متحدة مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي للدفاع عن منظمات الطبقة العاملة في مواجهة العصابات الفاشية. ولكن رفض الحزب الشيوعي الألماني تلك المبادرة، على أساس أن الاشتراكيين الديمقراطيين كانوا "فاشيين اجتماعيين"، وبالتالي مثلهم مثل النازيين، إن لم يكونوا أسوأ.

لم يكن الحزب الاشتراكي الديمقراطي يريد تنظيم كتلة مقاومة للفاشية، وكان لابد أن يُجبروا على ذلك. ولكن برفض الحزب الشيوعي الألماني الضغط لتكوين الجبهة المتحدة بغرض الدفاع عن حقوق العمال والمنظمات ضد الفاشية، فقد أزال الضغط من على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي صار راضياً عن نفسه، وبدون أن يفقد ولاء أنصارهم.

بعد رفض الدعوة لتشكيل جبهة متحدة، فشل الحزب الشيوعي الألماني في توحيد القوى الضرورية لهزيمة الفاشية، وفشل أيضاً في كسب غالبية الطبقة العاملة إلى الشيوعية. وبذلك التطرف اليساري، والشعارات الراديكالية المجردة، بل أيضاً بالسلبية السياسية، ساعد الحزب الشيوعي الألماني في تمهيد الطريق لانتصار هتلر.

الجبهة المتحدة اليوم

كتب تروتسكي عن الجبهة المتحدة في وقت كانت فيه أحزاب شيوعية جماهيرية ذات جذور قوية في أوساط الطبقة العاملة في أوروبا تتنافس على النفوذ والسلطة مع أحزاب اشتراكية ديمقراطية ذات قواعد أوسع داخل الطبقة.

هذه الظروف ليست متاحة حالياً، وهذا يعني أن نظرية الجبهة المتحدة لا يمكن أن تُطبَّق بنفس الشكل الذي قدمه تروتسكي، وكما كتب تروتسكي عام 1922: "في الحالات التي يظل فيها الحزب الشيوعي، عددياً، أقلية غير مؤثرة، فإن مسألة الاتصال بالنضال الجماهيري والانغراس فيه لا تفترض بالضرورة تأثيراً عملياً وتنظيمياً حاسماً. ففي هذه الظروف، تبقى التحركات الجماهيرية تحت قيادة المنظمات القديمة التي، بسبب قوة تراثها وامتداده، تستمر في الاضطلاع بالدور الأكبر والأكثر تأثيراً في النضال".

هل هذا يعني أن قضية الجبهة المتحدة لا صلة لها بنا اليوم؟

على الرغم من أن الظروف اليوم مختلفة إلى حد كبير – ففي الولايات المتحدة مثلاً لا توجد أي أحزاب عمالية جماهيرية من أي نوع، على عكس الأحزاب الثورية الجماهيرية التي كانت موجودة في أوروبا في عشرينات القرن الماضي – إلا أن المنهجية التي حددها تروتسكي لا تزال شديدة الأهمية للاشتراكيين.

يتغير الوعي خلال النضال، وهذا النضال في أغلبه يكون نضالاً من أجل الإصلاحات السياسية والاقتصادية. أما الثوريون فلا يمكن أن يعارضوا النضال من أجل الإصلاحات، ولكن في الحقيقة يجب أن يُثبتوا أنهم أفضل المناضلين والأكثر حزماً والتزاماً في قيادة النضال حتى النهاية. ولن يكون ذلك إلا من خلال النضال جنباً إلى جنب مع النشطاء الذين لم يتبنوا السياسات الثورية بعد، ومن خلال العمل معهم. وهذا سيجعلنا قادرين على كسبهم إلى السياسات الاشتراكية.

وكما في الغالبية العظمى من الحالات، يشكل الاشتراكيون أقلية في النضالات السياسية والاجتماعية والنقابية، وعليهم أن يسعوا للبحث عن حلفاء ليمضوا قدماً في الطريق. يجب أن نكون على استعداد لتشكيل تحالفات مؤقتة، سواء رسمية أو غير رسمية، مع القادة والمنظمات الإصلاحية بغرض النضال، ومع ذلك نحافظ على استقلال منظمتنا وإصداراتنا ومنشوراتنا، إلى آخره.

أي سياسة أخرى غير ذلك ستحجزنا بعيداً عن الكفاح والنضال الذي يعمّق من راديكالية الجماهير ويجذبهم إلى الأفكار المعادية للرأسمالية.

*** المقال منشور باللغة الإنجليزية في 13 أغسطس 2013 بموقع "العامل الاشتراكي" – الولايات المتحدة**

دروس الهزيمة: الشيوعيون الألمان وصعود هتلر

بقلم: دوني جلاكشتين

ترجمة: محمود عبد المنعم

في الذكرى الثمانين على صعود هتلر للسلطة في ألمانيا وسحق الفاشية لأقوى حركة عمالية في تاريخ العالم يستعرض الكاتب الماركسي البريطاني دوني جلاكشتين بعض الأخطاء القاتلة التي ارتكبها الحزب الشيوعي الألماني والتي أدت إلى صعود النازيين، من التقليل من خطر وصول النازيين إلى الحكم عل وجود حركة الطبقة العاملة من عدمه مع توصيف مميت للقوى الاشتراكية والنقابية الاصلاحية – رغم واقع خيانتها للثورة الألمانية – على أنها قوى "اشتراكية فاشية" لا تقل خطورة على العمال من النازيين وعداء الحزب لفكرة تكوين جبهة متحدة مع القيادات الاصلاحية كان يستطيع العمال من خلالها وقف مد الفاشية وبناء بديل ثوري للرأسمالية المأزومة في تلك الحقبة.

ثمانون عاماً مضت على تأسيس هتلر للحكم الديكتاتوري على ألمانيا. في 27 فبراير 1933، بعد وقت قصير من تعيين هتلر في منصب المستشار، احترق البرلمان الألماني (الرايخستاغ) على أيدي النازيين. كان ذلك لتوفير المبررات اللازمة لحظر الحزب الشيوعي الألماني ولبدء عملية قمع شاملة. وفي 22 مارس من نفس العام، افتُتح أول معسكر اعتقال في داخاو بالقرب من ميونيخ. في اليوم التالي قامت "قوات العاصفة" بترهيب نواب البرلمان الرافضين لقانون تمكين هتلر الذي يعطي له السلطة في اتخاذ أي تدابير يريدها دون الحصول على موافقة ديموقراطية.

وصف الثوري الروسي ليون تروتسكي تطورات الأحداث بأنها "أكبر هزيمة للطبقة العاملة في التاريخ". والنازيون يحتفظون بهذا الشرف المشبوه حتى يومنا هذا.

يبلور اليسار استراتيجيته بشكل صحيح استناداً إلى تصاعد نضال الطبقة العاملة، كما كان الوضع في الثورة الروسية 1917 على سبيل المثال. لكن الهزائم تتضمن دروساً مفيدة خاصة بها. فمن خلالها يمكن للاشتراكيين اكتشاف ما ينبغي تجنبه.

عوامل عديدة لعبت دورها في صعود هتلر للسلطة. بعضها كان مدفوعاً عن طريق قوى خارجة عن سيطرة اليسار. في عام 1918 اندلعت ثورة جماهيرية أنهت الحرب العالمية الأولى وأسقطت القيصر الألماني. ولمدة خمس سنوات تأرجحت البلاد على حافة الثورة.

الاضطرابات

النظام الألماني اضطرب بشدة جراء تلك الأحداث، وأُصيب الرأسماليين بالرعب، وكلاهما تولّد لديه الرغبة في الانتقام الفوري. في عام 1923 فقدت الطبقة الوسطى مدخراتها بسبب فرط التضخم، جعل هذا الغضب الشعبي يتوجه ضد النظام البرلماني المؤسَّس بعد الحرب – جمهورية فايمار – وتوجهت الكتل التصويتية إلى أحزاب المعارضة التي حملت مشاعر تدل على خيبة الأمل من النظام القائم. وما جعل الوضع أكثر تأزماً هو الانهيار الاقتصادي في وول ستريت عام 1929.

وبمهارة، جذب هتلر دعم كل هذه التيارات المعارضة وراء الحزب النازي من خلال تشتيت الانتباه بعيداً عن الجذور الحقيقية للأزمة – النظام الرأسمالي – وألقى باللوم على تنظيمات الطبقة العاملة. تلك كانت التنظيمات التي وعد هتلر أتباعه بأنها "ستُدمر تماماً، لن نهدأ حتى يتم تدمير آخر صحيفة، وتصفية آخر تنظيم، ومحو آخر مركز تثقيفي".

في عام 1933، تمتع الحزب النازي بالدعم الانتخابي الشامل دون معارضة في مواجهته، وتوجهت الطبقة الحاكمة إلى هتلر لتنفيذ برنامجه وعينته مستشاراً. كانت القوة العسكرية للرئيس هيندينبيرج وكبار رجال الأعمال قد استنتجوا أن "أي قرار آخر من شأنه أن يولد إضراب عام، وإن لم يكن حرباً أهلية".

الحركة العمالية

كان من المتوقع أن تسعى الطبقة الحاكمة لتحميل الأزمة على العمال. والسؤال الرئيسي هو: ماذا سيفعل معسكرنا؟ كانت الطبقة العاملة الألمانية ممثلة في تنظيمين. الحزب الاشتراكي الألماني كان الأكبر، ومنذ الحرب، وكثيراً ما كان ممثلاً في الحكومة. التنظيم الآخر هو حزب العمال (أكثر يسارية)، وكان حزباً إصلاحياً مرتبطاً بالنقابات الرئيسية. تجاهلت قيادات الحزب الاشتراكي الديموقراطي خطر النازية، واثقين في أن الدستور الألماني الديموقراطي سيكون كافياً لمنع هتلر من تنفيذ تهديداته. وتوقعوا أن "خصومنا سيهلكون من خلال شرعيتنا". حتى فيلس، أحد قيادات الحزب، انتقد أعضاء حزبه لكتابتهم شعارات معادية للنازية على الجدران، بدعوى أن ذلك لم يكن قانونياً!

أما الحزب الشيوعي فقد كان أصغر من الحزب الاشتراكي الديموقراطي، ولكنه كان أكبر حزب شيوعي خارج الاتحاد السوفييتي، وكان لا يزال كبيراً. كتب تروتسكي من منفاه واصفاً الشيوعيين الألمان بـ "زهرة البروليتاريا الألمانية" الذين كانوا "يحكمهم شغفهم وتطلعهم الصادق لقهر الفاشيين، ولفصل الجماهير عن نفوذهم، لإسقاط الفاشية والتضييق عليها. وما من شك في ذلك". وضع الشيوعيون الألمان معتقداتهم على صعيد الاختبار العملي. فخلال شهر يونيو وحده، قاتل الشيوعيون الألمان النازيين ذوي القمصان البنية في الشوارع، أسفر القتال عن 99 قتيلاً و125 جريحاً من النازيين.

الفترة الثالثة

اعتمدت المعارضة الفعّالة لصعود النازية على الاستراتيجية التي يتبناها الحزب الشيوعي. المأساة في ذلك الوقت كانت عندما تبنى الحزب الشيوعي ما يُسمى بتكتيك "الفترة الثالثة". في الوقت ذاته، عندما كانت الأزمة الرأسمالية تدمر حياة الملايين، كانت نازية هتلر تحقق مكاسب انتخابية ضخمة (حيث ارتفعت النسبة من 2.6% عام 1928 إلى 37.4% في عام 1932). تركزت مهام أعضاء الحزب الشيوعي على مهاجمة غيرهم من اليساريين، ووجهوا اتهامات سخيفة ضد الاشتراكيين الديموقراطيين بأنهم "فاشيون اجتماعيون"، و"أسوأ ألف مرة من الديكتاتورية الفاشية".

كان هذا إلهاء كارثي عن القضايا الرئيسية في ذلك الوقت – الأزمة الاقتصادية وتهديد الفاشية – أفسح المجال لانقسام لم يكن اليسار ليتعافى منه. كانت النتيجة أن الحركة العمالية الأكثر نفوذاً في العالم أصيبت بالاضطراب، وصعد هتلر للسلطة من دون مقاومة تقريباً. استمر الأمر حتى جاء التحدي الرئيسي الأول ضد الفاشية بانتفاضة العمال النمساويين. من هنا بدأت النضالات الجماهيرية ضد الفاشية في فرنسا واسبانيا حتى سنوات الحرب العالمية الثانية.

لن أطيل في الحديث عن نظرية "الفترة الثالثة" في هذا المقال. فكرة أن أياً من القادة، أو كتلة من العمال الذين يشكلون قاعدة الحزب الاشتراكي الديموقراطي كانوا "ألف مرة أسوأ" من هتلر أو هيلمر أو جوبلز أو جورينج، منافية للعقل. هذا النهج غير منطقي على الإطلاق، ولا يمكن لأي شخص عاقل أن يعقد مقارنة مباشرة، في بريطانيا مثلاً، بين حزب العمال والحزب القومي البريطاني (BNP – حزب فاشي) أو يستنتج أن الأول أكثر من التهديد الفاشي. ومع ذلك، فإن طبيعة الخطأ نفسه تستحق المناقشة.

أولاً؛ يمثل ذلك خسارة من منظور الشيوعيين. حتى وإن كان اعتماد ذلك النهج كان تحت الضغط الروسي، فروسيا تجاهلت الوضع في ألمانيا وقامت بتطبيق مجموعة مشوّهة من الأولويات. مهما كانت الضغائن التي كنّها الحزب الشيوعي تجاه الحزب الاشتراكي، كانت هناك أمور أخرى تجري في الفترة بين عامي 1928 و1932، فقد انخفض الإنتاج الألماني بنسبة 43%، وارتفعت نسبة البطالة الرسمية إلى 5.6 مليون (30%) على الرغم من أن الرقم الحقيقي ربما كان 10 مليون نسمة، وانخفضت مستويات المعيشة للعمال. كان القادة الحكوميون يهاجمون، والنازيون يجذبون ملايين الناخبين من الطبقة المتوسطة ويحشدون مئات الآلاف من العصابات ذات القمصان البنية في الشوارع. كانت الأزمة الرأسمالية الضخمة والخراب الذي حلّ على الحياة اليومية للسكان هي أهم القضايا التي تواجه الحزب الشيوعي الألماني. كان من الممكن أن يتحول الوضع إلى نقطة انطلاق للعمل السياسي، ولكن لم تجري الأمور هكذا.

العدو الخاطئ

ثانياً، حدد الحزب الشيوعي العدو الخطأ، فقد جعل أعضاءه يركزون جهودهم على "التعرض اليومي للدور المخزي والغادر الذي يقوم به الحزب الاشتراكي".

بالتأكيد كان للشيوعيين العديد من الانتقادات المشروعة لقيادة الحزب الاشتراكي الإصلاحية. في خلال الثورة التي اندلعت عام 1918 وقف الحزب الاشتراكي بجانب الرأسمالية وشجع قمعها العنيف من قبل ميليشيات "فريكوربس" اليمينية. كانت عواقب ذلك مأساوية على المدى البعيد. تم عزل الديموقراطية السوفييتية الوليدة التي أنشأها العمال في روسيا في بلد متخلف يهيمن عليها الفلاحين. واستسلم البلاشفة، المحرومون من الدعم الدولي، في النهاية إلى الثورة المضادة الستالينية.

تواطأت قيادة الحزب الاشتراكي في اغتيال القادة الأوائل للشيوعية الألمانية، روزا لكسمبورج وكارل ليبكينخت، في عام 1919. خلال صعود هتلر استخدم الحزب الاشتراكي خطاباً لا يختلف عن الخطاب الهجومي الذي يلقاه من جانب الحزب الشيوعي: "تحالف فوقي – النازيون والشيوعيون. كل من يصوّت للشيوعيين... يخدم مصالح أصحاب العمل ويساند الرجعية". وبعبارة أخرى، كان الحزب الاشتراكي الديموقراطي حزباً إصلاحياً شاملاً مُصاب بجميع القيود والمشاكل التي تعوق تحقيق الاشتراكية.

إن حكماً محايداً على هذا الوضع يتطلب شيئاً أكثر من مجرد توجيه الانتقادات على زميل من الجناح اليساري. فالمطلوب هو التحليل الرصين.

تروتسكي وأنصاره الألمان دعوا الشيوعيين – سُدىً – إلى تركيز جهودهم على القضايا الرئيسية للحظة، وخطر النازية قبل كل شيء: "إنكار هذا التهديد، والتقليل منه، وعدم أخذه على محمل الجد هو أكبر جريمة يمكن أن تكون ارتُكبت اليوم". فبدلاً من الاتهامات المثيرة للسخرية التي تقول أن العدو في المقام الأول هو "الفاشية الاجتماعية"، دعا تروتسكي الشيوعيين إلى أن يوجهوا هذه الرسالة للاشتراكيين: "سياسات أحزابنا متعارضة تماماً، ولكن إذا جاء الفاشيون اليوم إلى مقر منظمتكم، سوف نأتي مسرعين، والأسلحة في متناول اليد، لمساعدتكم. هل تعدوننا أنه إذا تم تهديد منظمتنا سوف تسرعون لمساعدتنا؟"

للأسف رفض الشيوعيون هذه الجبهة المتحدة .ولم يكن باستطاعة التروتسكيين القيام بشيء. كانوا تنظيماً صغيراً جداً ليس لديه أي تأثير على أي من الطرفين العماليين الرئيسيين.

كان هناك بعض الجدل حول لماذا أصبح الشيوعيون الألمان مهووسين بتوجيه الانتقادات إلى أطراف أخرى من اليسار. المسؤولية الرئيسية لذلك تقع بالتأكيد على عاتق ستالين، فبعد أن أنشأ ديكتاتورية رأسمالية دولة في روسيا، كان يستخدم الحركة الشيوعية خارج روسيا كأداة للسياسة الخارجية له. وكان قد صارع معارضيه في الحزب، مثل تروتسكي وبوخارين، وكان يريد تعزيز الخط، والذي بدا راديكالياً، بغض النظر عن الضرر الذي أوقعه على المستوى الدولي.

ظهر النفاق بعد سنوات قليلة عندما عَكَس ستالين موقفه تماماً، ودافع عن تحالف "الجبهة الشعبية" ضد الفاشية، ليشمل ليس فقط أحزاب الطبقة العاملة الأخرى، بل أيضاً جميع القوى الرأسمالية اليمينية علناً.

على الرغم من أن تكتيك "الفترة الثالثة" كان مفروضاً من الخارج، فالتكوين الاجتماعي للحزب الشيوعي الألماني جعل هذا التكتيك أكثر تأثيراً مما قد يكون. كان من الصعب على الشيوعيين أثناء تواجدهم في العمل أن يتخذوا إجراءات فعالة دون الاتحاد مع العمال الآخرين. هذا جعلهم يحجمون عن تنفيذ التكتيك الرسمي. عندما دعا قادة الحزب الشيوعي أعضاء النقابات إلى الانقلاب على اتحاد النقابات الرئيسي الذي يسيطر الحزب الاشتراكي، عصا أعضاء النقابات هذه الدعوة بشكل متكرر. وقد ندب زعيم الحزب الشيوعي الألماني على ذلك:

"العديد من الشيوعيين يرون أن المجالس العمالية والنقابات المنحازة للفاشية الاشتراكية (مشيراً إلى الحزب الاشتراكي الديموقراطي) رفاقاً يناضلون من أجل نفس الهدف – الاشتراكية.. العديد من الشيوعيين لا يرون أن الفصيل الفاشي الاشتراكي، وخاصة الإصلاحيين "الشرفاء"، هم العدو الرئيسي".

العاطلون

للأسف خلال فترة الركود كان هناك عدد قليل جداً من الشيوعيين يعملون في وظائف. مع حلول عام 1932 كان هناك حوالي 9 من أصل 10 أعضاء بالحزب الشيوعي الألماني بدون عمل، مما جعل الحزب يفتقر إلى الاتصال مع الطبقة العاملة المنظمة، وبالتالي أن يتشوش أعضاؤه. جعلهم ذلك فريسة لموقف ستالين وشجعهم على تحويل إحباطهم ضد الآخرين من اليسار. وكانت العواقب وخيمة.

ومع ذلك، فإن الدرس المستفاد من كارثة "الفترة الثالثة" يتجاوز الحاجة إلى تشكيل جبهة متحدة ضد الفاشية. كان ذلك الخطر عنصراً واحداً فقط من الصورة الشاملة. إن الدعوة إلى تشكيل جبهة متحدة لا تعني أن كل شيء يجب أن يُنسى. هذا هو السبب الذي جعل تروتسكي ينصح الشيوعيين بعدم التعتيم على حقيقة أن سياسات الحزب الاشتراكي الديموقراطي تتعارض على نحو لا يمكن رأبه مع سياسات الحزب الشيوعي. كانت المشكلة الرئيسية لدى الحزب الشيوعي الألماني هي أنه فقد الحس بالمنظور والأولوية، الحس بالأمور الهامة في كل لحظة. تركز عمل الحزب على مهاجمة فصيل آخر من اليسار، وتجاهل الأزمة الاقتصادية والاضطرابات السياسية والهجمات الرأسمالية، وكذلك المناورات النازية.

تحليل تروتسكي لما حدث من أخطاء في ألمانيا تركز بشكل ثابت على الشيوعيين لسبب بسيط جداً، وهو ضرورة توافر قيادة سياسية تتمثل في حزب ثوري. وكان تروتسكي قد تعلم ذلك من خلال الثورة الروسية 1917، على حد تعبيره في كتيبه "دروس ثورة أكتوبر"، مشيراً إلى ثورة 1917 في روسيا: "بدون حزب، وبصرف النظر عن الحزب، وعلى رأس الحزب، أو مع وجود بديل للحزب، لا يمكن للثورة البروليتارية أن تنتصر، وهذا هو الدرس الرئيسي من العقد الماضي".

***المقال منشور باللغة الإنجليزية بمجلة "الاشتراكي" الشهرية البريطانية – عدد مارس 2013**

الثوريون والانتخابات

بقلم: جون مولينو

ترجمة: محمد العجيري ومصطفى عمر

يؤكد الاشتراكي الثوري البريطاني جون مولينو في هذا المقال أن الحركة الماركسية الثورية لم تؤمن، في أية لحظة على مدار تاريخها في النضال من أجل مجتمع اشتراكي يحكمه العمال والطبقات الكادحة، أن البرلمان البرجوازي، والذي يخضع دائماً في التحليل الأخير لواقع أن طبقة رجال الأعمال وجهاز دولتهم هم المسيطرون الفعليون في النظام الرأسمالي، هو الساحة الرئيسية للتغيير الجذري في المجتمع. إلا أن الكاتب أيضاً يجادل بأن رواد الماركسيين الثوريين أصروا، في ظل غياب الإمكانية الفورية للانتفاضة العمالية التي تطيح بحكم الرأسمالية وطالما أن العمال ما زالوا يأملون في إمكانية التغيير الإصلاحي من خلال برلمان، أصروا على أهمية مشاركة الثوريين، كقاعدة (لها إستثناءات)، في هذه الإنتخابات، بشكل أو بأخر وعلى حسب الظروف الموضوعية. ويشرح مولينو خطأ بعض الثوريين في عدم تفهم الفارق الذي يحدثه انتصار لليسار الإصلاحي أو اليمين في الإنتخابات على وعي العمال وتوقعاتهم وبالتالي إمكانيات تطور الصراع الطبقي. ويدلل الكاتب، باستعراض الخبرات التاريخية والمعاصرة، على فوائد تكتيك الثوريين في المشاركة في الإنتخابات على بناء بديل ثوري طويل المدى، حيث تتيح المشاركة للثوريين الفرصة، سواء من خلال ترشيح أنفسهم أو الدعم النقدي لمرشحين قريبيين من العمال، في تقديم برامج عملية لتطوير وعي وإمكانيات نضال العمال في خضم النقاشات السياسية التي تجذب إهتمام العمال أثناء الحملات الانتخابية، وفضح النظام الرأسمالي أمام الجماهير من داخل منبره النيابي.

لماذا المشاركة؟

لا يؤمن الماركسيون الثوريون بإمكانية التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية من خلال الإصلاحات أو الانتخابات البرلمانية. نحن لا نؤيد حتى الصيغة المبهمة والتي تقول: "إن المطلوب هو مزيج من أغلبية برلمانية يسارية تكملها، أو تدعمها، من خارج البرلمان تعبئة الطبقة العاملة". في الواقع، وبناءا على استنتاج ماركس من تجربة كوميونة باريس 1871 بأن الطبقة العاملة لا يمكنها ببساطة أن تستولي علي أجهزة الدولة القائمة لاستخدامها في تحقيق أهدافها الخاصة، وبعد تعزيز لينين نفس الموقف في كتابه الدولة والثورة 1917، نستخلص أن الطبقة العاملة تحتاج إلى تدمير جهاز الدولة القائم بما فيه البرلمان في ثورة شاملة من الأسفل، والاستعاضة عنه بدولة العمال المبنية على مجالس العمال المنتخَبة في أماكن العمل والأحياء السكنية للطبقة العاملة. كما ذكر لينين في كتابه "الشيوعية مرض اليسارية الطفولي": "فقط مجالس العمال، وليس البرلمان، يمكن أن تكون الوسيلة الوحيدة لتحقيق أهداف البروليتاريا".

ونحن نفهم أيضا أن البرلمان (أو قصر الرئاسة) ليس موضع السلطة الرئيسي في المجتمع الرأسمالي، حيث تتركز السلطة الحقيقية في مجالس إدارة الشركات العملاقة، والمصارف، والمؤسسات المالية وفي جهاز الدولة (قيادات القوات المسلحة والقضاء والشرطة وغيرها)، وبالتالي فالساحة البرلمانية ليست هي المحور المركزي للصراع الطبقي أو لنشاطنا كاشتراكيين ثوريين، مرة أخرى وعلى حد تعبير لينين فإن: "الحراك الجماهيري" – إضراب كبير على سبيل المثال – هو أكثر أهمية من النشاط البرلماني في جميع الأوقات، وليس فقط خلال ثورة أو حالة ثورية.

فلماذا إذن يجب على الثوار المشاركة في الانتخابات البرجوازية؟

أولا، حقيقة كون الانتخابات ليست حاسمة في تحديد مصير المجتمع لا يعني أنها لا تصنع فرقا على الإطلاق، والقول بأن الانتخابات ونتائجها لا تصنع فرقا إطلاقا هو مبالغة واضحة وشكل من أشكال الحتمية الميكانيكية الاقتصادية، والتي أنكرها إنجلز بشكل واضح (جنبا إلى جنب مع جميع الرواد الماركسيين الآخرين).

وفقا للمفهوم المادي للتاريخ، فإن العنصر (الحاسم) في تطور التاريخ في المقام الأخير هو إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الحقيقية، لم يقل ماركس غير ذلك ولا أجزم أنا بغير ذلك، وبالتالي إذا كان شخص ما يحور الكلمات السابقة ليقول أن العنصر الاقتصادي هو العنصر الجوهري (الوحيد) في تطور التاريخ، فإنه يحول الطرح السابق إلى عبارة مجردة لا معنى لها. ومع أن الوضع الاقتصادي هو الأساس في التاريخ، غير أن عناصر البنية الفوقية المختلفة – الأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجها – لها دورها. وللإيضاح: فمثلا الدساتير – التي تضعها الطبقة المنتصرة بعد معركة ما – ، والأشكال القانونية، وحتى انعكاسات كل هذه النضالات الحقيقة في أدمغة المشاركين، والنظريات السياسية والقانونية والفلسفية، والآراء الدينية وتطورها إلى نظم عقائد، أيضا تمارس نفوذها على مجرى الصراعات التاريخية وفي كثير من الحالات ما تهيمن علي تحديد شكلها.

فوز فرانسوا هولاند اليساري الإصلاحي على ساركوزي اليميني في الانتخابات الأخيرة في فرنسا لم يحول المجتمع الفرنسي أو يغير مساره الأساسي، ولكنه أحدث فرقا، وانتصار حركة سيريزا اليسارية في الانتخابات الماضية في اليونان أيضا لم يكن ليحول اليونان جذريا، ولكن من الواضح أنه كان سيحدث تغييرا كبيرا في الظروف التي تناضل فيها الطبقة العاملة اليونانية. لا يمكن لنا كاشتراكيين ثوريين أن نكون غير مبالين بهذه الاختلافات الحقيقية، كما لا يمكن أن نكون غير مبالين بالإصلاحات الصغيرة مثل الحد من طول يوم العمل، وزيادة الأجور، وسن التقاعد، وهلم جرا، وهي الإصلاحات التي لا تُغير في النظام بشكل جوهري ولكن تؤثر على مستويات معيشة العمال وظروف نضالهم.

والسبب الثاني للمشاركة في الانتخابات هو أنها جزء من المعركة من أجل تطوير وعي الطبقة العاملة. نحن الثوريون قد لا يكون لدينا إيمان أو أوهام بالبرلمان، ولكن الملايين من العمال تظل لديهم أوهام، ونحن قد نفهم أن السلطة الحقيقية ليست في يد البرلمان أو النواب، ولكن الملايين من العمال لا يفهمون هذا الموضوع حتى الآن. وبالتالي تعتبر الانتخابات لهذه الملايين من العمال وقتا يكثف الوعي السياسي عندما تركز عقولهم على النقاش السياسي، بطريقة لم تكن متاحة في الكثير من الأوقات. ولهذا يجب على الثوريين ألا يسمحوا لهذه الفترة أن تمر من دون التدخل لعمل دعاية اشتراكية، وقبل كل شيء لا يمكننا تحمل ترك أرضية هذه المعركة السياسية للإصلاحيين والليبراليين والمحافظين والفاشيين (خاصة وأن الفاشيين قد جمعوا دائما بين النضال البرلماني وما هو خارج البرلمان بشكل فعال جدا).

ثالثا، في الواقع انتخاب الثوار كنواب أو كمستشارين يمَكنهم من العمل كمدافعين عن مصالح الشعب وكأبواق للأفكار الاشتراكية، وكذلك للمساعدة على التعبئة لحملات العمال والمضطهدين.

وأخيرا، وغالبا ما تُنسَى هذه النقطة لأننا لم نصل بعد إلى هذه المرحلة من النضال ولكن لينين أكد عليها، من المفيد جدا في النضال ضد البرلمانية "دفع السياسيين الموالين للعمال داخل البرلمان للعمل على تفتيت البرلمان من الداخل، ولإنجاح مهمة أية مجالس عمال مستقبلية في تفكيك البرلمان".

متى نقاطع؟

إذا كانت المشاركة في الانتخابات بوجه عام، بشكل أو بآخر، هي الخيار الصحيح – وقد كان هذا رأي ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي، ولوكسمبورغ، وليبكنخت، ولوكاتش، وجرامشي، وكليف، وماندل، وهارمان وتقريبا كامل أقطاب التراث الماركسي الجاد – فهناك رغم ذلك ظروف معينة يكون إعلان المقاطعة فيها هو الخيار المناسب. ولكن متى؟ مثل هذا السؤال هو بطبيعته تكتيكي ويجب دائما أن يستند إلى تحليل قوي للوضع الملموس – فمن المستحيل صياغة أي حكم مطلق. ومع ذلك، وعلى أساس تاريخ الحركة الماركسية، فمن الممكن أن نقول أن موقف المقاطعة يجب أن يكون الاستثناء وليس القاعدة، وأن الظروف الاستثنائية التي تبرر تدشين حملة مقاطعة "ايجابية" هي عندما تكون جزءا لا يتجزأ من التحضير لما يقرب من كونه انتفاضة ثورية مباشرة. لذلك، يُنظر إلى مقاطعة الانتخابات على أنها عمل يؤدي مباشرة إلى تفكيك والإطاحة بالبرلمان المعنِي.

ربما الفصل التاريخي الأكثر فائدة في الإجابة على هذا السؤال هو التطور في موقف لينين من مجلس الدوما القيصري في الفترة من 1905 – 1906. وهذا موصوف بالتفصيل في كتاب توني كليف، لينين، المجلد 1، بناء الحزب، (لندن 1986). وكانت النقاط الرئيسية كالتالي:

كان مجلس الدوما القيصري هيئة برلمانية غير ديمقراطية للغاية، مع امتيازات تصب بوضوح وبشدة في مصلحة المُلاك وضد العمال والفلاحين.

في أغسطس – سبتمبر 1905 دعا لينين إلى المقاطعة كجزء من الإعداد لانتفاضة مسلحة، وأقر البلاشفة اقتراحه.

بعد هزيمة التمرد في ديسمبر عام 1905، واصل البلاشفة دعم المقاطعة في انتظار تجدد الانتفاضة.

وعندما تبين أن الانتفاضة المسلحة أصبحت غير ممكنة، غير لينين موقفه في أغسطس 1906، وأيد المشاركة، حتى وصل به الأمر للتصويت في مؤتمر للحزب في 1907 مع المناشفة وضد البلاشفة.

واستنتج لينين:

"مقاطعة نشطة.. تكون هي التكتيك الصحيح، فقط في ظل طفرة واسعة وعالمية وسريعة للثورة، آخذة في التطور إلى انتفاضة مسلحة، وفي غياب هذه الشروط تدعو التكتيكات الصحيحة للمشاركة في الانتخابات".

ووقع حدث مماثل في أغسطس – سبتمبر 1917، بخصوص مجلس الجمهورية، أو البرلمان الابتدائي، والذي كان ممثلا للأمة حتى تكونت الجمعية التأسيسية. وعلّق تروتسكي في تلك اللحظة:

"معرفة الموقف الذي يجب اعتماده فورا تجاه مجلس الجمهورية أصبح مشكلة تكتيكية حادة أمام البلاشفة. هل يجب أن يدخلوه أم لا؟، أتت مقاطعة المؤسسات البرلمانية من جانب الفوضويين وشبه الفوضويين من عدم الرغبة في وضع ضعفهم تحت الاختبار من جانب الجماهير، وبالتالي الحفاظ على حقهم في الاستكبار التطهرى – وهو الموقف الذي لا يُحدِث أي فارق عند أي أحد. ولا يمكن لحزب ثوري أن يدير ظهره للبرلمان إلا إذا كان قد حدد لنفسه مهمة إسقاط النظام القائم فورا".

ولكن، بالطبع، كان هذا الوضع يمثل لحظات ما قبل الانتفاضة الثورية مباشرة، وعكست المناقشة بين البلاشفة هذا، حيث كانت غالبية القيادة البلشفية ضد المقاطعة، في حين كان تروتسكي، بدعم من لينين (الذي كان مختبئا) مع المقاطعة، ولم يكن لينين حتى هذه اللحظة قد نجح بعد في إقناع اللجنة المركزية للبلاشفة بفكرة التحضير للانتفاضة الثورية. وتُبين هذه الأمثلة التعقيدات التكتيكية لقضية المقاطعة، لكنها تعزز أيضا فكرة أن الثوار بصفة عامة يقفون مع المشاركة في الانتخابات.

كيفية المشاركة

المشاركة الثورية في الانتخابات يمكن أن تتخذ عددا من الأشكال، ومرة أخرى فمسألة أي شكل أو أشكال للمشاركة يمكن اعتمادها هو السؤال التكتيكي الذي يجب أن نجيب عليه في كل مرة بناء على التحليل الملموس للواقع، وتتأثر الإجابة على هذا السؤال بشكل كبير بطبيعة النظام الانتخابي القائم.

من الناحية المثالية فإن الحزب الاشتراكي الثوري سيشارك في الانتخابات من خلال الدفع بمرشحيه المباشرين. وهذا يعد أبسط وأوضح وأفضل خيار. ولكن للأسف، ولعدة عقود الآن، جعل ضعف القوى الاشتراكية الثورية هذا الخيار مستحيلا أو صعبا للغاية. فقد اكتشف حزب العمال الاشتراكي البريطاني في أواخر السبعينات أنه ليس من المفيد الدفع بمرشحين يحصلون على عدد هزيل من الأصوات تبعث على السخرية. كما أنه ليس من المفيد أن ينافس العديد من المرشحين من اليسار الثوري بعضهم ضد البعض فيفتتون أصوات بعضهم البعض ويشتتون الناخبين ويأتي ذلك على حساب اليسار ككل.

ولهذا السبب غالبا ما يكون ضروريا على الثوريين أن يشاركوا في الانتخابات كجزء من تحالفات اليسار، وغالبا ما تكون هذه الائتلافات والتحالفات ضرورية، لكنها دائما تقدم مشاكلها الاستراتيجية والتكتيكية المعقدة التي لا يمكن أن تنتهي عند هذه النقطة.

وبالرغم من ذلك فإنه من الممكن تحديد بعض المبادئ التوجيهية العامة لهذه الحملات:

- يجب تنظيم حملات جادة تهدف للفوز، إذا كان ذلك ممكنا. ولهذه الغاية ينبغي لنا أن تقوم دعايتنا الانتخابية على برامج ذات مطالب واقعية حتى تكون منطقية لكتل كبيرة من الشعب العامل وليست برامج مجردة وجوفاء.
- يجب أن نرفض بحزم نزعة الانتهازيين للرضوخ لضغوط وإغراءات تقديم التنازلات من أجل الفوز في عملية الانتخاب، مثل تذيل الأفكار العنصرية والذكورية والشوفينية.. إلخ.
- يجب أن نوضح أن الحملة الانتخابية هي مجرد جزء (في مثابة المرتبة الأدنى من النضال) من أجل تعبئة الجماهير.

ولكن هناك أيضا مسألة كيفية التصويت عندما نكون غير قادرين على ترشيح أنفسنا؛ وحتى عندما نتمكن من الترشح، كيف نستخدم أصوات الخيار الثاني أو التصويت في الجولة الثانية إذا لم نتأهل بعد الجولة الأولي. ومن الواضح أن هذا يثير العديد من الأسئلة المتنوعة، الصعبة أحيانا، الحاسمة أحيانا والأقل أهمية بكثير أحيانا أخرى. على سبيل المثال في الانتخابات العامة في أيرلندا في عام 2011 دخلت في عدد من المناقشات مع الرفاق، بعد أن صوتنا في الجولة الأولى لمرشحي التحالف اليساري الموحد والذي شاركنا فيه، عن كيفية استخدام الخيار الثاني والثالث بعد: هل يجب علينا التصويت ثانيا (لشين فين – الجناح السياسي للجيش الأيرلندي الجمهوري) ثم ثالثا (لحزب العمال) أم ثانيا (للعمال) ثم ثالثا (لشين فين)؟ هنا يصعب أن يكون هناك حل واحد يناسب الجميع لأنها مسألة أعقد من مجرد الدفع بمرشحين؟ ولكن، مرة أخرى، لا يزال من الممكن أن أبدي بعض الملاحظات العامة.

اتخاذ قرار لمن نصوت

أولا من الضروري أن نفهم أن قرار الاشتراكيين الثوريين بشأن كيفية التصويت مبني على أساس مختلف عن الليبراليين أو غيرهم ممن يعتقدون فعلا أن نواب البرلمان أو الرؤساء هم حقا من يديرون المجتمع. كبداية، فإن الخصائص الشخصية للمرشح لها أهمية قليلة جدا وبالتأكيد لن تكون نقطة انطلاق لنا لاتخاذ هذا القرار. على سبيل المثال، لو أن المرشح الرئيسي لليسار في الانتخابات هو اليساري المعروف جورج جالاوي في بريطانيا (والذي دعمه حزب العمال الاشتراكي من قبل)، أو الليبرالي – اليساري رالف نادر في الولايات المتحدة (والذي دعمته المنظمة الاشتراكية الأممية هناك في 2000) أو حمدين صباحي في مصر، فليست حجة جيدة لتقول أنا لن أصوت لهذا الرجل "لأنني لا أثق به"، أو "لأنني لا أطيقه شخصيا"، أو "أنا لا يمكن أن أدعمه لأنه فعل شيئا سيئا قبل ثلاث سنوات".

ثانيا، يشكل التصويت في الانتخابات تفضيل لنتيجة معينة في ظروف عادة ليست من اختيارنا، ولا يمثل تأييد سياسي شامل لمن ندعمهم. ومفهوم الدعم الانتقادي حاسم هنا ويعبَّر عنه بصور متعددة "مثل التصويت دون أوهام"، أو "التصويت والتحضير للمعركة"، أو "الدعم الانتخابي كحبل مشنقة" (لينين).

وللأسف قد أصبحت عادة سيئة داخل اليسار هي الهجوم العنيف من منظمة يسارية على قرار من منظمة أخرى يسارية بشأن التصويت للمرشح (س) أو الحزب (ص)، كما لو كان الدعم الانتخابي يساوى تأييدا سياسيا شاملا وكاملا، حتى عندما يكون واضحا تماما أن هذا ليس هو الوضع. (وبطبيعة الحال، يتعين على الاشتراكيين الثوريين جعل انتقاداتهم لمن يدعمون في الانتخابات واضحة).

على سبيل المثال، في عام 1997 صوت حزب العمال الاشتراكي البريطاني لحزب العمل الإصلاحي بقيادة توني بلير، واتخذنا هذا القرار لأننا وجدنا أنه من المهم جدا للطبقة العاملة في إنجلترا أن تطيح بحكومة حزب المحافظين التي ظلت في منصبها لمدة 18 عاما، كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف. ذلك لا يعني أننا كان لدينا أوهام أو آمال في بلير أو حزب العمل، وتفسير هذا التصويت بالقول إن حزب العمال الاشتراكي البريطاني أو جون مولينيو يدعمون توني بلير هو مجرد مهزلة.

كتب لينين على النحو التالي عن جيل سابق من قادة حزب العمل:

"صحيح أن هندرسون، ومكدونالدز، وسنودين (قادة حزب العمل عام 1920) رجعيون ميئوس منهم، ومن الصحيح أيضا أنهم يريدون تولي السلطة (ويفضلون التحالف مع البرجوازية لتحقيق ذلك)، وأنهم يريدون "الحكم" على طريقة البرجوازيين

القدامى، وعندما يصلون للسلطة بالتأكيد سوف يتصرفون مثل شيدمان ونوسك (الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان قاتلي لوكسمبورغ وليبكنخت وخونة الثورة الألمانية)، كل هذا صحيح، ولكن دعمهم لا يعني على الإطلاق خيانة للثورة؛ ما يجب إدراكه فعلا هو أن إعطاء هؤلاء السادة قدرا معينا من الدعم البرلماني في لحظة معينة يصب في مصلحة الثورة والطبقة العاملة والثوريين".

كل من يفسر هذا على أن لينين كان، بصفة عامة، من مؤيدي ماكدونالد رامزي أو شيدمان ونوسك، فهو، عن عمد أو بسذاجة، لا يفهم المقصد.

الشيء الرئيسي هو تحديد المعنى السياسي للتصويت في حالة سياسية معينة، استنادا إلى دراسة الموقف ككل.

ويتطلب ذلك أخذ وضع جميع القوى والجماعات والأحزاب والطبقات والجماهير العاملة في بلد معين في الاعتبار، وأيضا لا ينبغي أن تتحدد تلك السياسة فقط عن طريق رغبات ووجهات نظر، أو حسب درجة الوعي الطبقي أو نضالية مجموعة واحدة أو حزب واحد فقط.

في رأيي توجد 3 عناصر ذات أهمية خاصة في هذا التقييم:

- الطبيعة الطبقية للأحزاب أو المرشحين المعنيين.
- الطبيعة الطبقية والسياسية للجماهير الداعمة لهذه الأحزاب أو المرشحين.
- التبعات السياسية لتصويت بعينه أو لنتيجة معينة للانتخابات المعنية.

وتكون المسألة بسيطة نسبيا إذا كانت الإجابات على كل هذه الأسئلة تشير دائما في نفس الاتجاه، لكن للأسف فالحياة ليست بهذه السهولة.

ولنتذكر، وكما أوضح لينين، فأحزاب العمال والاشتراكية الديمقراطية الإصلاحية هي عادة ليست أحزاب رأسمالية صرفة ولا عمالية صرفة، بل هي إلى حد ما أحزاب عمالية – برجوازية أو عمالية – رأسمالية، حيث أنها تجمع بين قيادة موالية بشدة للرأسمالية مع (عادة) وجود رابط عضوي مع النقابات العمالية (خاصة مع بيروقراطيين النقابات العمالية)، وتحظى بالدعم الانتخابي الجماهيري من الطبقة العاملة.

على هذا الأساس، كما رأينا، جادل لينين لصالح التصويت لحزب العمل البريطاني ضد الأحزاب الرئيسية للبرجوازية البريطانية، أي حزبي المحافظين والليبراليين. ولكن هناك اختلافات وفروق وتنوعات في أوضاع أخرى: هناك أحزاب يسارية إصلاحية قياداتها ليست ببساطة "موالية للرأسمالية" مثل حزب العمل تحت بلير في بريطانيا، أو الاشتراكي بقيادة هولاند في فرنسا، أو الاشتراكي تحت باباندريو في اليونان وهلم جرا. فهناك أحزاب لها قيادات أكثر راديكالية من هؤلاء مثل سيريزا في اليونان أو جبهة غوشي في فرنسا على علم أنهم من المرجح جدا أن يذعنوا أيضا للرأسمالية تحت الضغط. وفي كثير من الحالات قد نضطر لتخطي تكتيك التصويت لصالح حزب من نوع حزب العمل ضد حزب برجوازي صريح بناءا على ضرورة تطوير بديل يساري أو اشتراكي ثوري للإصلاحيين.

في بعض الأحيان، كما هو الحال في ايرلندا، يسمح النظام الانتخابي بالقيام باستخدام التكتيكين معا (باستخدام الخيار الثاني في الانتخاب) – من تختار إذا لم ينجح مرشحك المفضل. وفي أحيان أخرى، حيث لا يمكن إلا اختيار مرشح واحد فإنه لا مجال إلا للتصويت لجهة واحدة كما هو الحال في بريطانيا.

تعقيد آخر يظهر في "دول العالم الثالث" أو البلدان النامية والمستعمرات السابقة، في كثير من الأحيان يتم ملء الفراغ السياسي الذي يُملأ في أوروبا بالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، بواسطة الأحزاب القومية أو الإسلامية التي تجمع بين دعم الرأسمالية في العملي، مع الخطاب المعادي للإمبريالية (وأحيانا نضال ضدها)، ويكون لهم كتلة داعمة كبيرة في وسط الطبقة العاملة والفقراء والفلاحين، مثل مجموعة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب إفريقيا، وحزب الله في لبنان، وفي أوقات متقطعة

منظمة التحرير الفلسطينية وحركة حماس. وفي أيرلندا لدينا الشين فين – الجناح السياسي للجيش الجمهوري الإيرلندي الذي يلعب هذا الدور غير العادي.

أحيانا يبدو العامل الثالث في قرار لمن سنصوت – التبعات السياسية للقرار – كأنه يدفع في اتجاه مختلف عن العامل الأول والثاني. لنأخذ على سبيل المثال الموقف في الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية الفرنسية في عام 2000، عندما وجدنا أنفسنا في جولة الإعادة بين شيراك اليميني والفاشي لوبان. من الواضح أنه لا يوجد اشتراكي يفكر في التصويت لأمثال شيراك عادة، ومن الواضح أيضا بنفس القدر أن فوز لوبان كان يمثل كارثة، وانقسم الرأي وقتها بين الماركسيين الثوريين، جادل حزب العمال الاشتراكي البريطاني ضد التصويت لشيراك، داعيا إلى تعبئة في الشارع ضد الفاشيين، بينما صوتت عصبة الشيوعيين الثوريين الفرنسيين لصالح شيراك. وقتها كنت داعما لخط حزب العمال الاشتراكي البريطاني، إلا أنني اعتقد الآن أني كنت مخطئا. في النهاية فاز شيراك وقتها بأغلبية ساحقة بنسبة 82٪ من الأصوات عند نسبة إقبال 79٪، لذلك أتضح أن الغالبية العظمى من العمال الفرنسيين صوتوا لشيراك.

اليسارية المتطرفة

برأيي أن أفضل مرجع عام في التراث الماركسي لمسألة الثوريين والانتخابات هو كتاب "الشيوعية اليسارية، مرض طفولي" للينين 1920، والذي اقتبست منه أعلاه، وهو الكتاب الذي كتبه لينين ليحارب نزعة اليسارية المتطرفة، والتي كانت بدورها قوة يعتد بها في عدد من الأحداث التي تلت الثورة الروسية مباشرة، وشكلت الأممية الشيوعية الثالثة بعد 1919 (الألمانية والهولندية والإيطالية وغيرها). بل الكتاب هو دليل رائع لاستراتيجيات وتكتيكات ينبغي دراستها من قِبل كل من يطمح إلى إصدار الأحكام في هذه القضايا الخطيرة، وكما أنه لا يمكن للمرء أن يكون اقتصادي ماركسي حقيقي دون أن يكون قد درس كتاب "رأس المال"، فإن المرء لا يمكن أن يكون قائدا سياسيا اشتراكي ثوري دون أن يكون قد قرأ "الشيوعية اليسارية: مرض طفولي" للينين.

حجج الكتاب الرئيسية هي:

- إن رفض جميع التنازلات مقدما ليس موقفا ماركسيا جادا.
- إنه من الضروري للغاية العمل في جميع النقابات العمالية، بما في ذلك نقابات العمال الرجعية.
- إنه من الملزم المنافسة على انتخابات البرلمان البرجوازية والمشاركة فيه.
- إنه من الضروري التصويت للأحزاب الديمقراطية الاجتماعية ضد الأطراف الرأسمالية بشكل واضح، من أجل التحيز لجماهير العمال ضد اليمين، ولفضح الإصلاحيين أمام الجماهير من خلال وضعهم في السلطة، وذلك لكسب العمال من القيادات الإصلاحية الغادرة.

إن فن القيادة الثورية ينطوي علي تعلم كيفية الفوز بغالبية الطبقة العاملة وليس فقط الطليعة الثورية (فلا يمكن أن يتحقق النصر بالطليعة وحدها)، وهذا يعني أن تكون متقدما بخطوة واحدة عن الجماهير وليس معزولا عنها.

مثلما أن كتاب رأس المال هو شرط أساسي لتحليل اقتصادي ماركسي لكنه ليس بديلا عن دراسة الاقتصاد الحالي، لا يمكن أن يكون مجرد القراءة للينين أو تروتسكي هي السبيل للوصول إلى قرارات صحيحة فيما يتعلق بالانتخابات؛ يجب أن يتضمن هذا تقييم واقعي متوازن للطبقات والقوي السياسية.

***المقال منشور في 5 مايو 2014 على بوابة "الاشتراكي"**